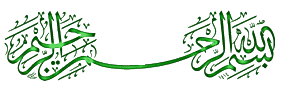


****

هذه الرواية "عـروس النـور"...

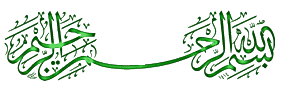
مساهمة أدبية متواضعة في فـن الروايـة

وهي صرخة في قلاع الشر، علت وجلجلت حتى صدّعت أسوارها، ولعلّها إن تهاوت عليها صرخات أخر جعلتها جذاذا، لتقيم على أنقاضها قصور الخير، وعلى أطلالها حصون النـور...،

ثم هي لمحة إلى عالم الجمال: جمال الخالق عزّ وجلّ الذي يتجلّى في الكون والطبيعة، وهي لمحة إلى جمال الروح، والأخلاق والكلمة...،

وأخيرا فهي فسحة مع صرح العطف والحنان الشّامخ "الوالدان"، عرفانا وردّا لقطرة من بحر الجميل، ودرءًا لفتنة العقوق والتنكر لهؤلاء الأطهار الأبرار....

**بوضياف محمد لمين**

****

**روايــة**

**عــروس النّــور**

**بوضياف محمد لمين**

# -١-

إننا لا نشعر بالراحة النفسية والجسدية في هذا العالم الذي ضجّت فيه الحياة بالأضداد والشرور، واضمحلّت فيه قيم الخير وتفشّى فيه قانون الغابة الوحشي بين ذويه، فعمّ الخوف والاضطراب، وصال الشر صولته عالي المكانة، عزيز الجانب، مرهوب المقام، يتستّر الخير أمامه في جلباب من الخوف والضعف، ويختبئ وهو ذلك القمر المنير والشمس الوضّاحة ولكنهما غابا حين عمّت سحب الجرائم في سماء الخير الصافية.

لن نكون مجحفين في حق أحد من الناس لو قلنا مثل هذا الكلام، فإن مما يسوءنا كثيرا أن يرى الإنسان إلى أخيه الإنسان نظرة الازدراء والاحتقار، وينظر إليه نظرة المصلحة الدنيوية، ويفرق بين هذا وذاك بلغة معناها في قاموسهم:" أنت خليلي ما دامت تجمعنا المصلحة وأرى فيك أنك صاحب المال والجاه والسلطان "، فيسود بينهم توقير الغني ولو كان مجرما، وتحقير الفقير ولو كان صالحا، وتسود عبادة الدرهم والدينار، وتهيم النفوس في إعلاء قدر الخنا والفجور وتنسى بأن الذي تجري خلفه مسعورة إنما هو كالزبد الذي يطفو فوق سطح الماء، ولا يلبث أن يذهب هباء منثورا، وأن الذي يوقره اليوم سيكون غدا ألد الأعداء، ألم يقرأ هؤلاء قوله تعالى:" فأمّا الزبد فيذهب جفاء وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض "، وقوله عز وجل كذلك:" الأخلاّء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلاّ المتقين ".

بل نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنه لينظر إلى أخيه الإنسان نظرة الحيوان المفترس أو الطائر الجارح أو الوحش الضاري يريد أن ينقض على فريسته، يترصّدها يريد أن يصيب منها مقتلا، فهو كما قال الشاعر:

جبّار صيد يريـد الصقـر مفتخــرا به فـإن لم يجــده يرضه الصُّـرَد

إذا انتضى سيفـه فالـرأس مـورده وإن رمى السهم فليستهدف الكبد

لن تستقر بذلك حال، ولن يبلغ المرء مرتبة الاستقرار النفسي والمستقبل مظلم أمام ناظريه بسبب سطوة الشر وجبروته وقد علا وذاع صيته في الآفاق، فلن يجد الاستقرار والأمان وهو يتخبط في يمّ بعيد القرار، كثيف الأستار بسبب هذه الفوضى، عالم أصبح فيه الشريف مجرما والمجرم شريفا، وأصبح الحق مذموما والباطل محمودا، وأصبح العفيف صغيرا أمام سطوة الرذيلة الجبّار، والفاجر كبيرا أمام من أذلوا جلال الفضيلة المقهور.

هل يصفو للحياة جو وقد تكاثفت سحب الجرائم في سمائنا، والناس مجرّدون من كل معاني الخير؟ وهل يحلو للعيش طعم وقد شاب ذوقها طعم الفواحش المسموم؟ وأفسد معينها قذى الشرور المحموم؟ وعكّر صفوها كدر الرذائل المذموم؟ وهل يبدو للحياة جمال وقد أفسدت رونقها الآثام والظلم والإجرام؟ هل بقي في الحياة بقية من رمق الأخوة والناس يتخبّطون في مهاوي التيه والظلام؟

لعل الإنسان يطغى فيربدّ جو الفضيلة الصافي بكل ما فيها من صفاء ونقاء، ولعل النفس تطمع فيكفهرّ جو الخير وينضب من غيث الأخلاق والفضائل، ولعل الشيطان يعمل معوله ويغرّر بالإنسان فيعتدي على أعز وأغلى شعارات الحياة فيهوي به في دركات القهر والطغيان.

لماذا يكره الأخ أخاه الشقيق وقد نزلا من رحم واحدة، ورضعا ثديا واحدة، وأظلهما سقف واحد، وما ذلك إلا من أجل الحطام الفاني والمتاع الزائل.

لماذا يسرق السارق، ويزني الزاني ويرتشي المرتشي ويسفك الدماءَ المجرمُ، وهؤلاء جميعا يعلمون أن من أخذ حقا بغير حق أو دنّس عرض أخيه أو استحلّ دمه بغير حقّ لا يجوز وأن ذلك حرام: " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ".

لماذا يعقّ الأولاد آباءهم، فيبغون عليهم بالقول الفاحش البذئ أو بالضرب أو بالطرد فلا يجدون بعد ذلك ملجأ يأوون إليه إلا مراكز الشيخوخة وديار الرحمة، ليقضوا آخر أيام حياتهم غرباء وهم أصحاب الدار والقرار، وبعداء وهم الأقربون ولا قرابة تأتي قبلهم، وأصبحوا في وحدة ووحشة وملل وحسرة على ما اقترفته فلذات الأكباد من الأولاد فيهم، وهم الذين في أمسّ الحاجة إلى الرعاية والعناية والتبجيل، خاصة وأن كبير السن تتهدّده الأمراض فيحتاج إلى رعاية أبنائه وأحفاده فيجد نفسه يتجرّع إضافة إلى مرارة المرض وآلامه غصّة البعد عن الأهل والولد، ويحبّ أن يكون المبجّل المقرّب صاحب المشورة والقرار فيفجؤه القدر بأنه من المبعدين الذين لا رأي لهم ولا مشورة، لهْفَ نفسي شاهت الوجوه يوم يصبح الآباء مطيّة تزحزحنا إلى النار: " رغِم أنف، ثم رغِم أنف، ثم رغِم أنف من أدرك والديه أحدهما أو كلاهما ولم يدخل الجنة "، وقال تعالى:" وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه وبالوالدين إحسانا، إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ".

هذا حتى وإن انتشر الشر في حياة البعض من الناس انتشار النار في الهشيم، فإن سلطان الخير في حياة الكثير من البعض الآخر قائم المملكة، عزيز الدولة، ممدود الرواق، يحيطه أهله بأسوار عالية من البذل والإغداق، ويذودون عنه بقلاع عاتية من الفضائل والإحسان والأخلاق، ويبذلون النفس والنفيس في إبقاء رايته عالية خفاقة في الآفاق، لا ينطفئ نوره وإن وهن، ولا يخبو لهيبه وإن ضعف، ولا ينضب معينه الصافي وإن خف جريانه إلاّ أنّه لا يجفّ، فإن كان الشر ضَيْقا وأشواكا فالخير رَوْح وريحان، وإنّ الشر لظلام ونار ولكن الخير شمس ونور، فالخير باق ما بقيت في الأجساد أرواح.

أرأيت إلى الشمس حين تشتو الشتاء فتغيب خلف الغيوم، حينها يخفّ توهّجها وحرارتها ويخفت نورها وضياؤها ولكنها لا تنطفئ، لتعود بعد ذلك في فصل الربيع بنورها وحرارتها وخيرها، فكذلك الخير حتى وإن وهن سلطانه في قلوب بعض الناس إلاّ أنه لا يغيب في قلوب البعض الآخر منهم، وإن عقّ بعض الأبناء آباءهم فإن البعض الآخر للواء الإحسان والبر يحملون، و" الخير فيَّ وفي أمّتي إلى يوم القيامة " كما قال رسولنا الكريم عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

- ٢-

# ما أعظم الأم... !

فهي كالشمس التي تطلع كل يوم فتحضن بنيها من بني البشر والحيوان والنبات فتغمرهم بضيائها ودفئها كما تغمر الأم رضيعها، وترضعهم من حنانها وعطفها ودفئها حين يكونون صغارا، وتعطيهم من الأخلاق والفضائل والهمم حين تشتدّ أعوادهم، وترعاهم بالأدب والتعليم والتوجيه حين يصبحون شبابا، وتكلؤهم بالدعاء والنصح والتقويم، فيصيرون من ذلك كله نتاجا لرجال تبنى على كواهلهم الأوطان وتشاد على عواتقهم الصروح ويقوم المجد على أقدام وسيقان ويدبّ الدين في الآفاق حتى يبلغ ما بلغت عروس النور ولا يبقى بيت مدر ولا وبر إلاّ وينعم بنعمة الإسلام.

تلك العظمة منحها إياها الله تعالى، لأنه قرن بعبادته وتوحيده بر الوالدين، فإنّهما عماد الأمر وذروة سنامه.

ولا تعجّل عقوبة في الدنيا قبل الآخرة إلاّ عقوبة عقوق الوالدين، فرُبّ قول أف للوالدين يهوي بك إلى قعر الخسران العميق، ورُبّ انتهار لوالديك أو زجر لهما يؤدّي بك إلى درك جهنم السحيق، ورُبّ قول كريم وخفض لجناح الذلّ من الرحمة والمعاملة بالتي هي أحسن يكون بك لنيل رضا الرحمن خليق، قال تعالى:" واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا "، واحذر أيها العاقّ فإن كان " هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان "، فإنه من باب السنن الكونية يمكن أن نقول: ما جزاء الإساءة إلاّ الإساءة، ولله المثل الأعلى، فمن زرع الشوك فلن يحصد البُرّ، ومن زرع العقوق فمحال أن يجني البِرّ، وكما تدين تُدان.

# -٣-

تطلّ الشمس علينا كل يوم فلا يبقى أحد من أهل الأرض من دابة أو طير أو نبات إلاّ وينعم بجمالها وجلالها وضيائها وبدفئها، ويغنم من حرارتها ونورها، ويرتشف من رحيقها ومُدامها، فهي لا تفرّق بين الكائنات كما لا يفرّق خالقهم تعالى بين الأعجمي والعربي ولا بين الأسود والأبيض ولا بين الأصفر والأحمر إلا بالتقوى، هي تحضنهم كما تحضن الأم ولدها فينعم بدفئها وحنانها، ويتسلح بقوتها وجلالها، ويتقوّى بخيرها وأخلاقها.

الشمس...

تمثل لبني الإنسان مصدرا للقوة والعظمة والعطاء، والعلوّ والسموّ والترفّع عن الخلود إلى الأرض، كما أنها مثال للعطف والحب والحنان، تعلو السماء فتعظم ولا يعلو إلا عظيم، وتخترق السحاب فتقوى ولا يسمو إلا كبير، وتضيء الأرض فلا تحجب ضياءها عن كائن حي أيّا كان، وتدفيء الأحياء فلا يتميّز أحد عن أحد، فيسعى كل إلى شأنه، فينادي مناد من السماء: يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر وأدبر، فمن ساع في فجاج الأرض يطلب علما، ومن مجاهد في سبيل الله يعلي راية ويطلب عزا ومجدا، ومن ضارب في دروبها يطلب رزقا، أو يصلح شقاقا، إلى باغ يطلب شرا ويقطع رحما ويفسد ودا ويسعى في الأرض فسادا.

الشمس...

... هذا هو الكوكب العظيم والنجم البديع والسراج المتوهّج الذي لا تصلح الحياة فوق الأرض إلاّ به، الذي يسمّونه " عروس النور "، يسبّح الله تعالى وله في الكون لبني البشر عبر وعظات، فهو قلب ينبض بالحياة، ودم يجري في العروق، ويد توقظ الخير في النفوس وحياة للقلوب تفعم بالحركة والنشاط الدؤوب والمبادرة إلى التي هي أقوم، والمسارعة إلى التي هي أسلم وأغنم، الشمس روح تسكن الأجساد فتوقظ فيها الإحسان والعطاء وترفرف في عالم الجمال والجلال والعلياء، لا تكل ولا تمل، تطل كل يوم من مشرقها وتغرب كل مساء من مغربها، فنتعلّم منها أن الكون في حركة ونشاط، يدْبر يوم ويقبل آخر، لا يقبل الكسل ولا الملل، ولا يعرف شيئا يقال له التسويف أو " لو " أو " سأفعل "، شعارها في ذلك: الكون يدور، والأيام تجري وتتّابع فإن لم تغتنمها بُؤت بالخسران، وإن كنت لبيبا فاعمل لدنياك كأنّك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنّك تموت غدا، " يا ابن آدم إنما أنت أيام معدودات فإن ذهب يوم ذهب بعضك ".

إنّها تنفق فلا ينضب عطاؤها، وتعطي فلا تمنّ بخيرها، ولا تنتظر جزاء ولا شكورا إن هي أحسنت... وكذلك الأمّ، تنفق من حياتها لإسعادك، وتسهر الليالي لراحتك، وتبكي بدل الدموع دمًا إن غبت عنها أو مرضت أو فشلت، ثمّ تأتي أيّها المسكين المحروم فتتنكّر للجميل، وتنسى أنّك مكثت تسعة أشهر في أحشائها في ظلمات ثلاث، ثم رضعت حولين من ثديها، وتربّيت رضيعا في حجرها بل وسكنت حياتها وقلبها وروحها، ونسيت بعد كل هذا العطاء نفسك، وقطعت اليد التي كانت تحسن إليك، ورميت التي كانت تؤمّل فيك أن تكون لها يوما ما سندها وعضدها... ألا فاذكر قول الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام حين سأله أحده الصحابة رضي الله عنهم: " من أحقّ الناس بحسن صحبتي؟ فقال:" أمّك ثم أمّك ثم أمّك ثم أبوك ثم أدناك أدناك... ".

تلك هي عروس النور...

التي عشقها الرسام والفنان فحاكى جمالها وشبّه بها كل ذي جمال، فهي في نظره ذلك الكوكب المضيء والنجم الوهّاج الذي يطل علينا بوجهه كل يوم من وراء الجبال، ويعلو بهامته المنيرة أو كالكرة الملتهبة التي تخرج من أقصى البحار فتزيد كلما علت السماء توهّجا والتهابا وجمالا، فيبدع في رسمها الرسام والفنان أيما إبداع، وتكون في حياته مصدرا للإلهام وتفتيق المواهب والأفكار والغوص في عالم الفن والخيال والإبداع.

تلك هي عروس النور...

التي هام بها الشعراء والكتّاب، والفلاسفة والمفكّرون فشبّهوا بها كل حسن وجمال، وروعة وبيان، ووداد وحنان، وبديع وحِسان، فهي في نظرهم تلك المرأة ذات الوجه المضيء، تعلو السماء بجدائلها الذهبية وخمائلها الصفراء، تسمو إلى الفضاء بوجهها الوضيء فتصبح الأرض كلها ضياء ونورا من فرط جمالها ونور وجهها، تغيب في المساء فتحزن الأرض وتتجلبب بالسواد وتعلن الحداد، وتتأهب لحالة من الصمت الرهيب والحزن المذيب، وتنعدم الحركة على الأرض حين تغيب عروس النور ويهجع كل إلى مضجعه حزنا على فراقها، ومنهم من يسامر القمر والنجوم وكأنما لهم عند النجوم رهينة لم تُدفع، أو لأن الكرى قد غاب حين غابت الشمس، ثم حين يبزغ الفجر تستحي أن تعلو السماء فيتورد المشرق بالحمرة وما ذلك إلا لتورد وجنتيها من فرط حيائها كما تستحي العذراء أن تخرج من خدرها ويراها الناس، وما تلبث أن تصعد رويدا رويدا حتى تطل من وراء الحجب فتدب الحركة والنشاط، ويعم الفرح والسرور، ويسود الضياء، وتنزع الأرض لباس الحداد الأسود لتستبدله بلباس النهار الأبيض فرحا وابتهاجا واستقبالا لطلوع عروس النور.

ومنهم من جعلها - ظلما وعدوانا - إلهه فخرّ ساجدا لها لما هابه من جلالها وجمالها وعلوها وعظمها ومهابتها.

يا عروس النور...

أنتِِ قبس من جمال، ونفثة من جلال، وقطعة من عظمة تسبح في العلياء وترفرف في السماء وتسبِّح رب الأرض والسماء.

ضـلّ مـن حصـر الجمال في وجه حسن، وقدّ مليح، وخدّ أسيل، وقوام جميل، وشعر طويل، وحور وعين.

لعله يتبادر إلى الذهن حين نطرق باب الجمال أن تحصره في ذلك الجمال العاري من الحياة والخالي من معانيه الحقيقية التي رسمها الله تعالى وأوجدها في الكون أوالطبيعة أو المعاني، وأن ترسم صورة في خيالك لامرأة حسناء، أسيلة الخد، ممشوقة القد، حوراء العين، سوداء الشعر، جميلة الثغر، وما شئت أن تعدّد من أشكال الجمال الظاهر وتحصر الجمال في هذا الجانب الضيّق دون غيره، فهذا الجمال يعتريه الجفوف والجمود ولا يخلص إلى سويداء القلوب؟!، ألا فلتعلم أن لي في الجمال فلسفة أخرى.

أرأيت حين يكون ثلث الليل الأخير، ثم يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ويتنفّس الصبح ثم يعلو المشرق حُمرة تليها صُفرة ثم تبزغ الشمس فتضيء الدنيا وكأن الأرض في عرس بهيج وقد أنيرت المصابيح في كل مكان، أليس ذلك من الجمال؟!.

أرأيت حين تغرب الشمس في المساء وتودّع الكائنات فتعلو المغربَ صفرة تليها حمرة ثم يحط غراب الليل الأسود بجناحيه على الأرض ويخفت الضوء شيئا فشيئا، فتهدأ الحركة وتسكن الكائنات إلى مأواها لتستريح من كدّ يوم طويل، أليس ذلك ضرب من الجمال؟!.

أفرأيت حين يخلُف البدرُ الشمسَ في المساء فيعلو هذا وتغيب تلك وكأنّ الأرض لا ترضى إلا بأحد السراجين والحارسين: الشمس أو القمر، فيطل بلونه الفضّي وتتحلّق حوله النجوم وتتناثر هنا وهناك كأنها تحرسه، وتنتشر يمينا وشمالا كما ينتشر الشيب في شعر الرجل الوقور، أليس ذلك الوقار والمهابة والسكينة من الجمال؟!.

أرأيت حين يضحك الطفل ويناغي أمّه وكأنّه يريد أن يحدّثها بلغته التي لا يفهمها إلاّ هو، حين يجوع أو يمرض أو يفرح أو يريد أن ينام، أو حين يلعب ويحبو، أوحين يصرخ ويبكي وكأن عقدا قد تناثرت لآلئه على خدّيه حين انقطع خيطه أوكأنّ قطرات النّدى على وريقات الورود الحمراء تريد أن ترتمي على الأرض، أوعندما ترى البراءة على وجهه البسّام الذي لا يعرف الحقد ولا الضغينة أليس ذلك من الجمال؟!، ليس الجمال شيئا ملموسا ولا معتادا، فهو موجود خارج الحدود التي ضيّقها بعض الناس عليه، وأحاطوه بها لا يتعدّاها، إنّما هو نفثة من نفثات الروح أوالقلب أو الفلسفة أو قُل حتّى الجنون.

إني أجده في هدوء البحر بل وفي ثورته كذلك، لأنّه يسبّح الله تعالى في مدّ الموج وجزره، في الجبال الشاهقة والوديان الساحقة، في الوهاد والفجاج، أجده في النجم يتلألأ وفي البدر يضيء، في الأزهار وفي الأطيار وفي الليل يتزين بالنجوم والأنوار، في البساتين حتى وفي القفار، في الصحاري القاحلة والواحات تزهو بالمياه والأشجار، في قطعان الوحوش وفي أسراب الأطيار، في النسر أو الحوت أوالسبع ينقضّ على فريسته وفي الحيوانات تحنو على صغارها، قد أجده في العرائن والخلايا والأوكار، وفي النحل يلثم الأزهار، وفي النمل يذهب بالحَبّ إلى الجحور وقت الصيف ليهنأ بها في فصل الشتاء، فهو يعطينا درسا في العمل وأن خير الكسب هو كسب اليد لا سؤال الناس ففي ذلك المذلّة، وأن العمل يكون في حال القوة والفراغ، فإن عرضت الحاجات والعوائق من المرض أو الفقر أو شغلت الأوقات بشيء من أمور الدنيا ندمت يوم لا ينفع النّدم وضربت كفا على كفٍّ قائلا:"يا ليتني قدّمت لحياتي "، واعمل في ذلك بمعنى ما ورد في ذلك الحديث: إغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك.

كما ترى العبقرية التي فطر الله تعالى عليها مملكة النمل حين تتأملّ هذه الأمّة وهي تنظّم مجتمعها بين سيّد ومسود، وعامل وحارس، وكيف تحرس جحورها من العدوّ الخارجي وتنظّفها وتقوم بإخراج الحب ليجفّ إذا ما أصابته السماء، وكيف أن النمل لا يخزّن القمح الذي يجمعه إلاّ عندما يقسّم الحبّة إلى فصّيْن حتى إن أصابها البلل أو الرطوبة فلا تنبت، أليست تلك العبقرية التي فطرها الله تعالى عليها من الجمال؟.

ألم تر إلى عالم النمل، إذ تجد كل فرد فيه يعمل ولا يتّكل على أخيه ولا يرضى أن يكون عالة على مجتمعه الذي يعيش فيه، تلاحظ النملة تحمل الحبة التي قد تفوقها وزنا، تمشي بها رويدا رويدا حتى تبلغ مأواها، فإن أفلتت من قبضتها وتدحرجت فإنّها تعود وترجع إليها، وهي لا تكلّ ولا تملّ، ولا يصيبها الإحباط أو ينال من إقدامها اليأس، أو يثبّط عزيمتها القنوط، بل تثابر وتجدّد العزم، فإن لم تنجح مرّة أعادت الكرّة، وإن سقطت في اختبار أخذت منه الإعتبار، وإن رجعت خطوة إلى الخلف زادت من الإصرار وخطت عشرا إلى الأمام:

و من يتهيّب صعـود الجبـال يعـش أبـد الدهـر بين الحفـر

فهل بعد كل هذا الإبداع والجمال الذي فطرها الله تعالى عليه في حياتها العملية والإجتماعية والتنظيمية من مستزيد، ولعلنا إن درسنا البنية الإجتماعية والتنظيمية والعملية لهذا المجتمع العبقري لصلحت حياتنا ولأثمرت جهودنا ولأفلحت أمتنا في النهوض من سباتها ونفض الغبار عن مجدها، ولعانقت الجوزاء علما ورفعة وسؤددا في العالمين.

وأجد معنى الجمال كذلك في السواقي والأنهار، وفي الحقول وفي الأشجار، وفي الغابات وفي أسراب الأطيار، وفي التلال تسيل بالشلال، في السهول والوعور، وفي نسمات السحور وتغريد البلبل والشحرور، في النسر والصقر يعلو بهامته ويعانق العلياء، ويتربّع على عرش أمّة الطير، عالي الهمّة، مرموق الجانب، فيه عزة الترفّع عن الدنايا، وعلوّ الهمّة، يسكن الأعالي من الجبال، ولا يرضى بالدون من الأماكن ليبني فيها الأوكار، وفي ذلك الفعل درس لنا معاشر بني الإنسان حتى تعلو هممنا، ونعانق النجوم ولا نرضى بالخلود إلى الأرض ولا نقبل بالدون من الأخلاق أو من العيش أو باليسير من العلم، متمثّلين في ذلك قول الشاعر:

فلا الأفق يحضن ميت الطيور ولا النحــل يلثـم ميت الزهر

ألم تر إلى أمة النحل كذلك، وهي الأكثر عبقرية والأروع إبداعا، وكيف نظّمت مجتمعها في خليتها بين ملكة تضع البيوض، وحرّاس يحرسون الخلية، وعمال يجمعون حبوب الطّلع وهم يقطعون المسافات الطوال في رحلة البحث عن الرحيق فلا يكلّون ولا يملّون، وهم مجِدّون كادحون، ثمّ انظر إلى هؤلاء العمال وهم يبنون خلاياهم في ذلك الشكل الهندسي البديع السداسيّ الأضلاع، فيضعون اليرقات فيها ويغطّونها بالشمع المخلوط بمادة أخرى حتّى يكون الغطاء نافدا للهواء الذي تتنفسه اليرقات وإلاّ ماتت، وأمّا إذا وضعوا فيها العسل جعلوا الغطاء شمعا خالصا لا يمرّ من خلاله هواء ولا رطوبة وإلاّ فسد العسل، فسبحان الله أحسن الخالقين،... أليس هذا الإبداع عين الجمال؟.

ألم أقل بأن الجمال شيء لا يفقهه الناس، فهو قبس من فلسفة، وضرب من إبداع الخالق سبحانه وتعالى في الكائنات، وفي الطبيعة وفي كل شيء، وقد يكون شيئا من جنون، والجنون فنون.

لا أراه في جمال الوجه قدر ما أجده في جمال الروح، ولا أراه في رونق المظهر قدْر ما ألمسه في رقّة الجوهر، فقد تجد الجمال في وجه الرجل فإذا باح بسِرِّه وجدت عقله يتخبّط بين حمأة الجهل ورذيلة الفحش، وقد ترى الحسن في وجه المرأة الحسناء، فإذا ترجمت أفعالُها حقيقتَها رأيتها قد خطت في مضمار الرذيلة خطوات سحيقة، فهان في نظري كل جمال زائف يتزيّن في الظاهر ويتزيّف في الباطن، فكرهت المرآة على الرّغم من نصاعة وجهها لأنّها تكذب على الناس الذين يروْن الحسن في الوجوه وينسوْن ما تضمره القلوب من ضغائن وأحقاد أو تخبّئه الألسن من نميمة وفحش وغيبة، وكرهت الوردة على ما فيها من جمال وطيب رائحة، وتمازج ألوانها وهي تموج ذات اليمين وذات الشمال لأنني رأيتها فأعجبتني فإذا أردت مسكها لسّعتني أشواكها، وأدمت يدي.

إنّما المرء بأصغريه قلبه ولسانه.

الجمال خلق كريم، فهو عند المرأة عفة وحياء، وعند الرجل شرف وحسن سريرة وصفاء.

فالعفة جمال والحياء جمال والأخلاق جمال والأدب جمال، والشرف والعلم والعقل جمال وأي جمال.

إنما المرء بالروح لا بالجسم إنسان.

# -٤-

... هي قرية من قرى هذا العالم الفريدة، وهي وليدة هذه الغابة ذي الظلال المديدة، والأشجار الوارفة الأوراق والنبع الدفّاق والماء الرقراق، والسهول التي سالت حول جنباتها السَّوَاق، تزيّنها قطعان الأغنام بثغائها وتمازج ألوانها البيضاء والبنّيّة والسوداء، تنتشر أزاهير مختلفة بديعة الألوان جذّابة المنظر على صفحة الحقل الخضيب، وتتماوج حقول القمح الخضراء كما تتماوج الأمواج في البحر فتسمع للسنابل حفيفا جميلا يبهج القلب الطّروب، وعلى جوانب السهل تمرح قطعان الغنم بفصل الربيع، وهي تتراقص وتميل، لأنها وجدت بغيتها من غض الحشيش وعذب المياه التي جرى بها الوادي، وترى الخراف الصغيرة تعدو هنا وهناك وهي تتسابق مع النسيم العليل وتقيل عندما تشتد حرارة الشمس في الظل الظليل، ثم تأتي إلى أمّها لتشبع نهمها من ضرعها، ثم تعود إلى لعبها ومرحها وعدوها وهي نشوى بفصل الربيع البديع... هذه القرية هي مخاض هذا المحيط البهيج، الجميل الأخّاذ، المرح الطروب، أفلا تستحق أن تتفرّد عن مثيلاتها؟

يسكن سفح هذا الجبل رجل فقير، من أقلّ الناس حظا من أنصبة الدنيا التي أطعمته الزّهيد من الطعام الذي لا يسمن ولا يغني من مخمصة، وبزّته الخشن من الثياب الذي لا يقيه قرًّا ولا حرًّا، وأسكنته الوضيع من الديار التي لا تكفيه وعائلته، ولا تؤويه من برد الشتاء ولا من حرّ الصيف...

لا بل إنه في نظري من أعظم الناس حظا وأوفرهم سعادة، وأكملهم طمأنينة كيف لا وهو يسكن هذه القرية البديعة الجميلة التي ازّيّنت لأهلها بصنوف الجمال الحسّيّ والروحي، وأحيطت بكل معاني الجمال النفسي والطبيعي الكوني، واكتست بهذه الحلة الأخّاذة الرائعة، ثم إنه محاط أيضا بذلك الجمال الخلقي، ومتسلّح بهذا السّمت الروحي الرّبّاني.

طغت المدنيّة الزّائفة على حياتنا فأذهبت منها كل جميل، وقتلت كل شيء يرفرف بالحياة والعنفوان، وطمست كل جمال حيّ بريء في الطبيعة، وطلّقت كل فضيلة وخصلة حميدة في القلوب، نفوس تعبت من الجري وراء سراب الحضارة الموهوم، وأجساد كلّت من اللهث وراء حطام المدنيّة المشؤوم، وعقول ذهبت من كثرة التفكير في زيف الدنيا وزخرفها وما هو إلاّ أماني ووهم وهموم، خنقت المدنيّة روحها وألغت عقلها ودنّست مبادئها وأبقت على جسدها وماذا بعد؟ فهل بين حياة الإنسان والجماد بعد هذا من فرق؟ وهل بين الحقيقة النّاصعة العذراء والأكاذيب الوهميّة العمياء من بوْن؟؟

إنّما أنت بالروح لا بالجسم إنسان

... ذلك الرجل يدعى (عليا)، متوسط القامة في اعتدال، نشيط الجسم نحيفه، عالي الهمة، متوقّد العزيمة، مستنير السّريرة، عليه ثياب رقاق كأنها الأسمال لا تقيه حرا ولا تصد عن جسمه قرًّا، لا تكاد تراه يوما بل لحظة إلا قائما على عمل يؤديه أوعاكفا على شغل نافع يفني فيه جهده إما في داره وأهله، أو في حقله وغنمه، أوفي الغابة يحتطب أو في الوادي يصطاد، وإما يخصف نعله أو يخيط ثوبه أو يغسل لباسه، وإمّا مسترسل في عبادة التّفكّر متأمّل للكون في تدبّر فهو رجل أرادت له أعراف الناس إلاّ أن تسميه: مقدّس العمل لأنّه يحبّ أن يعمل، والمتفكّر في الكون والملكوت لأنّه يديم فيه التدبّر.

يحكي عنه ابنه (مالك) فيقول:" كنت بين الحين والحين أجتمع إلى أبي وأتجاذب معه أطراف الحديث، وكم كان كلامه حلوا وجذّابا، تجتمع فيه الأصالة واللطافة والحكمة.

ولم أكن الوحيد الذي لمس مثل هذه الخصلة فيه، ولكن أترابه من بني قريته كانوا يجتمعون إليه فيطرفون بحديثه ويتلطّفون بنوادره، وينتفعون من حكمته ويعملون بمشورته وينتهون إذا ما نهاهم عن شيء لأنهم يروْن فيه الورع والأخلاق، ويأتمرون بما أمرهم به من صالح الأعمال لأنّه الذي لم تبحث عن خصلة من خصال البر إلاّ وظفر بشيء منها يسيرا كان أو قليلا.

هذا هو الرجل الذي غرفتُ من بحر فضائله على قلّة علمه وتواضع حياته، ولكن كلّ شعرة من رأسه الذي اشتعل شيبا تشعّ حكمة وكل تجعيدة من تجاعيد وجهه التي زادته وقارا تروي قصة، وكلّ لمحة من ملامح حياته إلاّ وتحكي حكاية، وليست العبرة بكثرة الرواية إنّما هي نور يقذفه الله تعالى في قلوب عباده المخلصين وأكْرم بها من نعمة.

هذا هو الرجل الذي تعلّمتُ منه الحلم والكرم والتواضع، والصبر وحب الخير للناس والإعتماد على النفس، فقد فاحت حياته بورود الفضيلة وطلق بالثلاث حياة الفحش والرذيلة، هو الجبل الشامخ حلما والرجل العظيم رفقا والأب الجمّ خلقا والجار العميم صدقا، وهو الأب الرحيم والزوج الكريم والصديق الحميم والجار الأمين.

قد يضنّ على نفسه بالمال والطعام والراحة، ولكنه يؤثر به عائلته أو قريبه أوجاره على قدر المستطاع، وقد يحرم نفسه الراحة كسبا لقوته وقوت عياله أومشيا في حاجة أخيه يقدّم مساعدة لمن يريد عونا ولو على حساب راحته لأنه يعلم أن من مشى في حاجة أخيه كان الله تعالى في حاجته، ومن نفّس عن أخيه كربة من كرب الدنيا نفس الله تعالى عنه كربة من كرب يوم القيامة، ينام وليس في قلبه بغضاء ولا شحناء ولا حسد لأحد، يُظلم فيعفو ويُؤخذ من حقه فيتسامح، إنه خُلُقٌ يمشي على قدمين".

رُزِق (علي) خمسة من الولد، ثلاثة ذكور وبنتان، يكبر أولاده (مالك)، تليه (ميمونة)، ثم (أحمد) وآخرهم التوأم (صفية) و(آدم)، أُمّ أولاده تدعى (زينب)، إمرأة صدق فيها قول المصطفى عليه الصلاة والسلام:« الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة »، لم تؤت قدرا من العلم تحمله في عقلها ولكن صفت سريرتها، لا ولا قدرا من الدين كعلم تحمله في صدرها بقدر ما جرحته أفعالها، هي امرأة أُوتيت بفضل فطرتها السليمة الصافية قلبا وأي قلب، لا تشوبه كدرة الغل والحسد ولا قذى البغض والغل ولا ران عليه الغدر والخيانة، إنّما منحها الله تعالى سريرة صافية ورزقها قلبا كبيرا زانه من أطايب الأخلاق ما زادها فضلا عن سائر أترابها من بني جنسها، ومرد ذلك أن (زينب) هذه نشأت في منبت طيب وأسرة فاضلة وبيت شريف.

(زينب)...

إنها المرأة الصبور، الكريمة، المضيافة، الأمينة التي تطيع زوجها في مكرهها ومنشطها، في علانيّتها وسرّها، في حضرته وأثناء غيابه، وهي التي تحفظ سرّه وهي التي تربّي ولده وتقوم على شؤون بيتها خير القيام، وهي الولود الودود.

ثمّ هي الجارة الكريمة والأم الرحيمة والزوجة الأمينة، ليس لها حظ في الراحة أو متاع الدنيا وزخرفها إلاّ قليلا، لأنها تؤْثر راحة زوجها وأولادها على راحتها، وتحسن التصرّف وإدارة شؤون البيت، تربِّي وتغسل، تنظّف وتطبخ وتدير شؤون الدّار باليسير الذي أمكن بين يديها وتعين على نوائب الدهر زوجَها، وهي التي ترتسم علامة الرضا بالقضاء على وجهها البسّام رغم قلّة ذات يد زوجها وتواضع بيته.

تزوّجت أكبر بنتيْهما (ميمونة) منذ ثلاث سنين، وقد اصطبغت بأخلاق أمها وأدلت بدلوها من جُبّ فضائلها وبحر كرم أخلاقها، فكان ذلك مما حبّب فيها ابن جيرانها وهو مُدرّس بمدرسة القرية فتزوّجها ورزق منها ولدان، ونال من رغد العيش معها ما نال الذي أراد الزواج على سنّة الله تعالى ورسوله الأمين عليه الصلاة والسلام، وليت الشباب يعلمون الحكمة ويذوقون الحلاوة في اختيار ذات الدين تربت أيديهم.

أمّا (مالك) أكبر أولادهما فشاب في الثلاثين من العمر، من خيرة الشباب: علم وخلق وأدب رفيع وذكر طيّب بين الناس، فهو يملك الشهادة الجامعية في الأدب ولكنه لم يحصل بعد على وظيفة يقتات منها، إلا أنه يدرّس في مدرسة القرية متطوِّعا دروس محو الأمية وتعليم الكبار، وهي مهمة يراها (مالك) رسالة جليلة وخدمة نبيلة وصدقة جارية يجدها يوم لا ينفع مال ولا بنون، كيف لا- وهو يُخرج الذين لم يحظوا بالجلوس على مقاعد الدراسة من كبار السن أو الذين تعذّر عليهم ذلك لظروف ما- من ظلام الجهل وغياهب الأمية إلى نور العلم ونبراس المعرفة، لذلك فقد تأخّرت سنّ زواجه شيئا ما واقتصر على العمل في حقل أبيه يساعده ويقنع بما يجود به الله تعالى في العام المطير من خير الأرض، وبما يكسبه من المواشي، وبما تتفضّل به أبواب الرزق من رحمة الرزاق، لذلك فقد أحبّه أهل القرية كبيرهم وصغيرهم حبّ الآباء لأبنائهم، وأكرموه ولو بما يكنّون له من الإحترام والتبجيل، ورأوا فيه الذي يحيي قلوبهم ويذهب عنها ران الجهل وعَمَى الأمية متمثّلين في ذلك قول الشاعر:

قـم للمعلّـم وفّـه التبجيلا كاد المعلّم أن يكـون رسولا

أمّا (أحمد) فشابّ في العشرين من العمر، غادر صفوف الدراسة باكرا، ولقد أجهد والديه وأخويه الكبيرين حرصا منهم على تعليمه وحفاظا على ضمان مستقبله لأن الشهادة سلاح لا يستغنى عنه في هذا الزمان، فمن لم يملك شهادة أو حرفة في يده فسيجد النصب والتعب في تحصيل الرزق، وهذا كله من اتخاذ الأسباب التي تبنى عليها سنن الكون، فكم نصحوا وأنّبوا، وكم وبّخوا وضربوا، ولكنه كان أعند منهم وأقوى، فهزم الضعيف الأقوياء، إلاّ أنه مع هذا ظفر بحفظ جزء من القرآن الكريم، لعلّه يقوِّم له من الأخلاق ما اعوجّ، ويهيّئه كذلك لحياة الصلاح، كما أنه نال حرفة الحلاقة من أحد الحلاقين الذين يعملون في قريته، لعل ذلك يفتح له من أبواب الرزق ما يكفّ به يده، ويحفظ له ماء وجهه، ويعفّ نفسه عن طلب ما في أيدي الناس حتى لا يسألهم أعطوْه أو منعوه، فهان أمره على أسرته هونا ما، وكل مخلوق لما يسّره الله تعالى له.

وأمّا (صفية) و(آدم) فهما وردتان في الربيع الخامس من عمرهما، وقد بدآ أول دروس الحروف والأعداد وقصار السور في القسم التحضيري هذا العام، وهما زهرتا البيت الجميلتين المشاغبتين المحبوبتين اللتين تملآنه زينة وفرحا وجمالا وسرورا.

إضافة إلى هؤلاء جميعا كان يسكن مع العائلة جدّهم لأمّهم، لأنّه لم يكن له إلاّ ولدان (زينب) و(منصور)، فلمّا تزوّجت ابنته وتوفّيت زوجته وجد نفسه بالبيت وحده فلجأ إلى بيت ابنته، خاصة وأنّه كبير السن وقد أنهكه المرض، فلماّ لم يجد من يعوله بعد أن سافر ولده (منصور) إلى المهجر ورفض الزواج، قرّر الإستقرار في دار صهره (علي) فعاش معهم ردحا من الزمن، ولكنه اختفى في يوم من الأيام، لأنّه كان يستثقل نفسه على عائلة ابنته رغم أنّهم يكنّون له كل الحب والتوقير والإحترام والرعاية، ولكن عزة نفسه وكرامتها لم ترض بما قد آلت إليه وربّما قد رأى في ذلك إهدارا لعزّتها رغم أن (عليا) وأولاده وابنته قد اعتادوا عليه وأنِسوا بوجوده وخاصة الأولاد الصغار ولم ير منهم إلاّ الخير، ولكن النفوس الكبيرة تأبى الهوان.

وقد أجهدوا نفوسهم في البحث عنه يوم أن خرج من البيت، وسألوا عنه معارفهم وأقاربهم، وكذلك كانت لهم اتصالات بالسلطات من الشرطة إلى المستشفيات وغيرها، إلى أن باءت كل مساعيهم في البحث عنه بالفشل، حتى إذا ما مرّ على تلك الحال شهران أتى ذلك اليوم الذي سمعوا فيه بأن الجد ّيقيم في أحد دور الرحمة وإيواء المسنّين قد توفّي - رحمة الله عليه -، حتى تقوم العائلة بمراسيم نقل جثمان قريبهم ومواراته إلى المقبرة لدفنه.

قامت العائلة بعد وفاة الجدّ بمراسيم الدفن والتعزية، وقد أعقب ذلك في نفوسهم من الحزن والهم ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى، لأنّهم كانوا مشتاقين إلى رؤيته حيّاً فوجدوه ميّتا، فقدوه وهو في أمس الحاجة إلى الرعاية خاصة وهو يعاني من المرض، وقد حزّ في نفوسهم كذلك أن ينتهي المطاف به في آخر حياته هذه النهاية الأليمة.

لقد مات ولم يجد أحدا من أهله وأبنائه يلتفّ حول سرير موته يلقي عليه نظرة الوداع الأخير فيلقّنه ويستوصيه ويخفّف عنه كأس المنيّة ومرارة الفراق ولوعة الوداع.

يموت وقد آل به المآل عند منتهى عمره إلى هذا الموقف المحزن، ويختم عقودا من الزمن - وقد تشتّت الشمل - وحيدا مريضا طريدا، بعد أن كان البيت غامرا عامرا سعيدا.

يموت وقد هتك المرض قواه، ودمّر الفراق في نفسه الإحساس بالأمان خاصة وقد وافته المنية وهو لا يعلم عن ابنه (منصور) شيئا، إن كان حيّا أو كان ميّتا، على الرغم من أنّه كان سببا في إهماله حتّى أصابه المرض وكذلك حزنه وذهابه إلى ملجإ المسنين.

يموت وهو الذي كان يحلم كما يحلم أيّ والد أو جدّ بأن يرى شمل أولاده وأحفاده ملتئما، يتوسّطهم كما يتوسّط الملك عرشه العضود وقد أحاطته العناية والرعاية والإحترام من كل مكان، وهؤلاء الأبناء ملتفّون حوله يأتمرون بأمر هذا الملك ونهيه، ويستشيرونه في الصغير من الأمور وذي الشأن، وأولئك الأحفاد الصغار منتشرون يلعبون ويمرحون كما تنتشر الفراشات في فصل الربيع تقبّل الأزهار، وتزيّن الدّار.

ولقد اضطرّ الجدّ للعيش مع صهره (علي) لأن ابنه (منصورا) الذي هو خالهم ووحيد والده مع أخته (زينب) ذهب للعمل بالمهجر منذ سنين ولم يظهر عليه منذ أن سافر أيّ خبر، وقد توفّيت إذ ذاك أمّ (زينب)، فبقي والدها وحيدا في البيت ولم يجد عائلا يقوم على شؤونه خاصة وأنّه كبير السن، كثير العلل، محدودب الدهر، متسارع الأنفاس، متثاقل الخطى، لم يبق له حظ في الزواج، وسفر العمر قد أوشك على أن يتمّ الرحلة وقد نال منه الوهن والمرض واليأس بنصيب.

كما قد أذاب تلك الحشاشة الباقية من حياته التفكير في مصير (منصور)، وأحرق كبده الشوق إلى رؤيته، وأدمى قلبه الحزن على فراقه، وأعشى بصره البكاء عليه والتّطلّع إلى نجمه الآفل لعلّه يبزغ يوما ما، ولكن سحب الفراق غشّت رؤيته، وطول ليل الحزن أبطأ طلعته، وقطار المنيّة أنهى رحلة العمر، وطرق طارق الأجل باب عمره ليستردّ الأمانة ويأخذ الوديعة، ففارق الدنيا وهو في حرقة وحسرة على فراق فلذة الكبد الذي غيّبته الظروف.

ذهب الحبيب فيا حشاشة ذوبي أسفا عليه ويا دموع أجيبي

لم يكن (منصور) يعلم بما قد يحصل لأبيه من عنت ومرض بعد رحيله إلى المهجر خاصة بعد وفاة والدته، وما كان من حق الوالدين عليه أن يتركهما هكذا هملا من دون أن يقف بجانبهما، فيتزوّج ليحصّن نفسه ولتكون الزوجة عاملا مساعدا له في البيت للقيام على شؤونه وشؤون والده من طهي للطعام وغسل للثياب وترتيب للبيت وغيرها، وأبوه قد بلغ من الكبر عتيّا، فهما محتاجان إلى من يقوم على شؤون البيت، وكذلك فإن الوالد مريض، إذ يحتاج إلى تناول الدواء وأكل الساخن الهنيء من الطعام وهي مهام لا تصلح أن تقوم عليها إلاّ المرأة.

ولم يعبأ (منصور) إن فجأه القدر بموت والده، وهو لا يدري اليوم أيكون فارق الدنيا وهو ساخط عليه بسبب تفريطه وإهماله له حتى أصبح عرضة للمرض والحزن والنكد، وحقيقة فقد تحقق ما خيف عليه منه، فقد فجعه الموت فيه، كما فجعه في أمّه من ذي قبل.

ولكن وصل به الحدّ أن تركه وسافر ولم يسأل عنه، وهو اليوم مغيّب مجهول المكان لا يدري أحد حياته من وفاته، فهل يا ترى فارق والداه الحياة وهما راضييْن عنه، أم أنه خسر دنياه إن كان حيّا وخسر آخرته إن كان ميّتا، بسبب ما جنته يداه من التقصير في جنابهما، فإن كان حيا فالخوف عليه من أن يكيل له العدل الإلهي بمكيالين فيدفع ضريبة العقوق جزافا وذلك عدل الله تعالى وسنّته في الكون التي لا تحابي أحدا خاصة فيما يتعلّق بالآباء إلاّ أن يتوب، وإن وافته المنيّة فالخوف عليه من عذاب الآخرة وذلك أدهى وأمرّ.

إنّكم يا معاشر الأبناء مسؤولون أمام الله تعالى عن أمانة الآباء والرأفة بهم والدعاء لهم وبخاصة إذا كبرت أعمارهم، فهم من ضعف إلى وهن، لذلك كان لزاما عليكم طاعتهم ورعايتهم والقيام على شؤونهم والدعاء لهم أحياء وبعد موتهم:

" وقل رب ارحمهما كما ربّياني صغيرا ".

# -٥-

ما أجمل نسيم هذا الصباح وما ألطفه، ما أصفاه وما أعذبه، ينساب كأنما يد الساحر تداعب أوراق الشجر وتلاطف بأناملها السّحريّة الغضّ من الثمر، وتمسح على صفحة الحقل المزركش بالحشيش وبالبديع من الزهر، فتنبعث مع النسيم العليل نسمات عطر منعش يبعث ما مات من الفِكَر، تتراقص هذه وتلك تحت مرأى عروس النور، على نغمات البلبل والشحرور، وخرير السواقي التي تنساب دفّاقة بين الحشائش والزهور.

إن بكور الصباح الجميلة تنبئ باليوم الأسعد والعيش الأرغد، السماء تنسلخ من جلد الليل الأسود، وتستعد وهي تنفخ نسيم الصبح العليل، وتتنفّس بذاك النّفس العذب الرّخا الذي ينساب كالسلسبيل، بين الزهور والورود وهي نشوى تشدو وتتراقص وتترنّم وتميل.

ما بال هذه الشمس لا تسرع بالطلوع رغم أن كل شيء في الأرض مشتاق ولوع، يطلب عروس النور بالآهات وبالغزير من الدموع، يطلبها حثيثا لتطلع فتزيّن الأرض، فقطرات الندى على الزهور، وفي الأعشاش تغرد الطيور، والورود في أكمامها تريد أن تلقي عنها خمارها لتعلن السفور، والمروج تموج وكل الناس يرتقب من المشرق عروس النور عند لحظة الخروج، كل أولئك ينتظرون قدوم الزائر الحبيب كل صباح بصبر مذيب ويودّعونه كل مساء بحزن ونحيب، ليبعث عليها من ألوان الحياة لونا جديدا، وينفخ فيها روحا مفعمة بالحركة والنشاط فترنو وتترنّم وتشدو معلنة بداية حياة طيبة سعيدة.

لقد كان العمّ (علي) من بين أولئك الذين ينتظرون قدوم هذا الزائر الحبيب عروس النور بالحبّ والسرور، والبِشر والخير والحبور، وإنّ من كرمه وجوده أن يقدّر الضيف ويعرف له قِراه، فلا تجده أبدا نائما والشمس قد أدركته بالطلوع، بل ينهض ليتهيّأ لها قبل أن تزوره، ومن حق الضيف أن نعرف له حقه ونجهّز له أنفسنا قبل أن يأتي، أمّا إن أتى ووجدنا نياما أو على حالة لا تسرّ ولا تليق بشرف الضيوف وكرم الضيافة ومقامها، فليس ذلك من شيم الفضلاء ولا من صفات الكرماء.

ينهض (علي) باكرا كعادته مستقبلا يوما جميلا بنشاط وابتهاج، فيُصلح من حال صلاته وعبادته وذكره ودعائه ساعة، ثم ينظر إلى زوجته (زينب) فيبتسم لأنها اليوم على غير عادتها نائمة، وهو لا يحب أن يوقظها في هذا الوقت الباكر من الصباح، لأنه وقت يعزّ فيه النوم ويستريح فيه الجسم، فهو زبدة الراحة وخالص الدّعة وجنة الأحلام، ولكنه رغم ذلك يرتاب في أمرها، لأنه لم يعهدها كذلك، فهي كانت توقظه صباح كل يوم، فإن سبقها إلى النهوض من النوم فهي تستيقظ معه، فتحضّر له الفطور وتجهّز من أموره ما يريد، ثم تصلح من شؤون البيت ما كان لا بد منه ريثما ينهض الأولاد، ولطالما ألحّ عليها بأن لا تجهد نفسها بالنهوض، ولكنها تأبى ذلك حتى تقوم على ما يحتاجه زوجها قبل أن ينصرف إلى عمله وتحرم نفسها من الراحة لأنها تحب زوجها وتعرف حقه إلا أن تكون مريضة أو نفساء، ولله ذر أمثالك يا (زينب) يوم أصبحت الصالحات عملة نادرة مفقودة في عصرنا هذا عصر الطائرة والحاسوب والصاروخ.

يلبس (علي) ملابسه وجزمته، وينظر إلى قادومه فيتجه إليه ليحمله ولكنه يتعثّر في قدر أمامه لم يرها في الظلام فيحدث صوتا، يطل من باب الغرفة على زوجته فيراها تتحرك قليلا جرّاء الضجيج ثم تعود إلى ما كانت عليه من السكون، ثم يغلق الباب برفق، ويتجه إلى الغرفة المقابلة ليوقظ ولديه (مالك) و(أحمد)، يضرب على كتف (أحمد) قائلا:

" إنهض فإن الشمس قد أوشكت على الطلوع "

حينها يشعر(مالك) بأبيه فينهض ويقول:

" كم الساعة يا أبي؟ "

فيجيبه (علي) قائلا:

" إنها الخامسة والنصف، سأسبقك إلى المزرعة فلا تتأخر"

(مالك):" نعم يا أبي سألحق بك بعد نصف ساعة ".

ينهض (مالك) ويصلي صلاة الفجر ويأتي من ورده وذكره ما تيسّر، ثم يلبس ملابسه وحذاءه ويتجه نحو المطبخ فلا يجد من الطعام شيئا، فيرتاب للأمر ويحدث نفسه:

" ألم تنهض أمي؟! "، يذهب ليلقي عليها نظرة، يفتح الباب إلا قليلا بقدر ما تسع عينه رؤية مكان أمه فيجدها نائمة، فيحدث نفسه ثانية:

" ليس من عادتها؟ "، ثم يتجه نحو باب الدار ليخرج ملتحقا بأبيه.

ما أجمل بكور هذا الصباح وما أطيب نسائمه، وإنها لمن أكثر الأوقات بركة وزكاء بل وصحة وصفاء كذلك، وإنه لِسِرّ ما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم للأمة بالبركة في بكورها.

لقد بدأ الخيط الأبيض يتجلى من الخيط الأسود من الفجر، يعلو المشرق بياض تخالطه حمرة الشروق ما بين الجبلين الشامخين، نسمات عليلة تداعب أوراق شجر السّرو والزيتون والبلوط، والأزهار تزداد بهجة وسرورا، على أكمامها ترى قطرات الندى وكأنها عبرات الفرح، فهي تترقب عروس النور لتطلقها من مآقيها فتنفذ إلى التربة التي تحضن سيقانها، فتغذيها لتظل باسقة متمازجة الألوان شذية العطور، راقصة على نغم خرير السواقي وحفيف السنابل وتغريد العصافير، وقد تسطو الأغنام عليها فتتغذى بها رغم أنها بهجة الطبيعة وجنة الربيع.

وقد يجمعها الصبيان فيشكّلون بها باقات ورد كأنها التيجان يكلّلون بها رؤوسهم ويتوّجون بها ملكهم ويحلمون كأنهم ملوك يتربعون على عرش مملكتهم، تلك المملكة التي أحيطت بكل أشكال الجمال الطبيعي الصافي البريء الذي أبدعه الله تعالى، لأن الطبيعة روح تحب البساطة والبراءة ولا تعرف التكلف والخداع، والأطفال براءة لا تعرف لصنوف الكيد والغدر سبيلا، لذلك فهم يحلمون بهذا العالم الذي عمروه بالفرحة والحبور، يعيشون عالمهم المكلل بالبساطة والسذاجة والسرور، لا يريدون أن يسطو أحد على قصرهم المعمور، وأنى لهم ذلك؟ وقد أحاطوه من البراءة والمحبة والحبور بألف سور وسور، لا يعبأ أحدهم بالأيام تدور أو لا تدور، إنما سر حياتهم محبة وأخوة يسطع منها قبس من جلال ونور، لا تعرف قلوبهم الشرور، ولا تتطلع إلى الغد المخفي والغيب المستور، لأن ذلك ظلم للقدر وجور، وهم لا يبالون بما قد يحدث بين الكبار الذين لم يكبروا على الخير والإحسان بل ضجّت حياتهم بالتعاسة والشرور.

وتطل عروس من وراء الحجب وترتفع برأسها، فكلما ارتفعت زادت جمالا فنستقبل وجهها، ويعم الأرضَ شعاعٌ ذهبي يضيء ما بين السماء والأرض، وينهض كل من يدب على الأرض من دابة ويعم الدفء، فتلقي الأزهار عبراتها فرحة بقدوم الزائر الجديد، وتعم الحركة الدؤوب متمازجة طروبا بخرير الساقية وثغاء الأغنام وتغريد العصافير.

ويطير غراب الليل وتنطفيء الأنوار التي شيّبت رأسه، وكيف لا تنسحب وقد حلّت أم الأنوار بضيائها ونورها لتعلن بداية يوم جديد، ليعلو صوت في السماء يقول: أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فاغتنم مني ما استطعت، فإني إذا ما ذهبت فلن أعود أبدا، فمن مفلح ومن خاسر.

يصل (مالك) إلى المزرعة فيجد أباه قد سبقه بغنيماته إلى سفح الجبل حيث تجد غذاءها من العشب على صفحة السهل الأخضر، وشرابها من الماء حيث يجري الوادي.

ينظّف (مالك) الإسطبل ممّا تراكم فيه من الأوساخ طيلة عشية وليلة، ثم ينقلها إلى الحقل أين ينثرها حول شجيرات المشمش والتفاح والرمان لتكون لها سمادا، ثم يعود إلى الإسطبل فيفتح بابه الكبير ونوافذه حتى يتهوى وتنفذ أشعة الشمس.

ينتقل (مالك) بعدها إلى الحقل حاملا قادومه ليقلب تربته ويقلع ما ضر محاصيله من حشائش، وهو مبتهج طروب، على وجهه بسمة الرضا وفي نفسه سعة من أسلم أمره للقضا، حتى ولو رآه بعض الناس أو رأوا في عمله من البساطة ما يحقّر لهم هذا العمل، وذلك الذي يقوم عليه، ولكن إرضاء الناس غاية بعيدة الإدراك، فهم لا يرحمون قاعدا عن العمل فيتهمونه بالكسل والخمول، وربما قد يكون المسكين قد كلّ وملّ من طرق الأبواب التي لم ترحمه، ثم إنهم لينكرون على من يعمل عملا دون دراسته أو شهادته، إنما هي أرزاق تقسّم، وأقدار تقدّر، ولكنهم جهلوا فعموا وصموا، وجنوا على الناس وأجرموا.

(مالك) على غير عادة الكثيرين من أترابه يحب العمل في المزرعة الصغيرة على الرغم من أنه يمتلك الشهادة الجامعية، فلما لم يجد عملا يناسب شهادته ويتلاءم مع ما أنفقه من أيام حياته تعبا وسهرا وكدّا لنيل العلم، فقد اختار أخيرا أن يكون فلاحا على أن يمدّ يديه إلى الناس وأن يسألهم أعطوه أو منعوه، ترى فيه ذكاء وحكمة في النظر إلى الأمور، يحكّم عقله لأنه قسطاس مستقيم ويلغي هواه لأن له جندا من الشيطان الرجيم، له شخصية قوية ونفس كبيرة، إلا أن والديه يشفقان عليه، كيف لا وقد سهرا عليه الليالي الطوال لتعليمه، وأنفقا الجهود المضنية لتأديبه، ولم يبخلا بالنفس والنفيس في سبيل أن يشبّ رجلا لا تقف في وجهه الخطوب، رجل يساهم في بناء صرح أمته وتشييد مجدها، وكان نتاج ذلك أن ترعرع في كنف العلم والأخلاق، ثم إن والديه نشّآه على ذلك حتى ييسرا له أسباب الرزق وفرص العمل، ولكن يشاء القدر أن تضيق به سبل الرزق، ولكنه كان إلى الصبر أقرب وإلى الرضا بقضاء الله وقدره أنسب.

ويا ليتكم أيها الناس تدركون هذه الحكمة وذلك المغزى من تفاضل الناس في توزيع الأرزاق وتفضيل بعضنا على بعض، إنما الفقر ابتلاء كما أن الغنى كذلك ابتلاء، فليعلم هؤلاء أنه لو اتخذ أحدهم كل أسباب الرزق ثم لم توافقها مشيئة الله تعالى فسيبوء بالفشل في كل سعي له لتحصيله، وإنك لتجد أنّ من الناس من يتخذ من الأسباب أوهاها أو قد يكون سعيه محدودا ولكنه يؤتى من فضل الله ورزقه ما لا حدّ له، عندها يحين وقت الإمتحان، فهل يصبر الفقير والمسكين أم لا؟ وهل يشكر الغني وذو السلطان أم يطغيا؟ وهل يدفع هذا ذل المسألة عن هذا مما يعطيه من الزكاة والصدقات أم يتركه فريسة تنهشه وحوش الفقر والمرض والحرمان والجهل قائلا: " إنما أوتيته على علم عندي "؟!!!، وتلك سنة باقية في العالمين إلى يوم الدين.

# -٦-

بينما (مالك) في الحقل يقلب الأرض، وأبوه في سفح الجبل يرعى أغنامه، وإذا بأخيه (أحمد) يجري ويصرخ مناديا:

" أبي، أبي...! "، فاندهش لأمره وانتابه خوف من ينتظر ما وراء هذا الصراخ من خبر مفزع، وأخذت تدور في نفسه أسئلة وشكوك شتى، وتملّكته رجفة أعقدت لسانه وأصمّت أذنيه وأثقلت رجليه، وما شعر بنفسه إلا وهو يرمي ما كان بيده وينطلق مسرعا إلى (أحمد) ليستفسره الخبر:

" تكلم يا (أحمد) ما الأمر؟ "

" أمي...، أمي... "، ثم يسترجع أنفاسه من جرّاء الجري، فيقول (مالك):

" تكلم ما بها أمي!؟ "

(أحمد):" إنها طريحة الفراش لا تستطيع أن تحرك رجلا ولا يدا! "

فقال له (مالك):" اذهب وأخبر أبي فهو عند سفح الجبل وسأذهب إلى البيت لأرى ما الأمر"، ثم انطلق كل منهما إلى سبيله.

قصد (مالك) طريقه إلى الدار يهرول حينا ويجري حينا وهو يلهث ويحوقـــل، وكم كانت الطريق إلى الدار طويلة على الرّغم من قصر المسافة بينها وبين الحقل، ولـكن مع ما انتابه من الخوف والفزع على مصيــر أمه خُيّّل إليه أن الدار بعــدت والطريق طالت.

ما زال (مالك) يسرع الخطى والدهشة تخيّم على وجهه، يعلو جبينه تجعد وهو يمعن النظر إلى الأفق البعيد وكأنه يترقب شيئا يأتي من الأفق، ولكنه لا يدري أبخير ينبئ أم بِشر؟، ولم يكن يرى من مرّ به في الطريق، وما كان يسمع كذلك من يحيّيه، لأن الخوف على أمه أنساه وألهاه عن كل شيء إلا التفكير في مصيرها.

وأخيرا وصل إلى البيت فرأى أولاد أخته (ميمونة) يلعبون أمام الدار فعلم أن أخته حضرت، فزاد خوفه على أمّه خشية أن تكون فارقت الحياة وهي التي تمثّل لكلّ فرد في الأسرة قلبه الذي ينبض بالحياة.

دخل (مالك) المنزل فرأى جمعا من النسوة يتحلّقن حول أمه وهي ممددة على الفراش وأخته بالقرب منها تبكي، فانتابه من الخوف وحل بنفسه من الحزن ما الله به عليم لظنه بأن أمه ماتت، ولكن سرعان ما بادرته أخته قائلة بصوت يخالطه نحيب:

" أمي مريضة كثيرا، عليك أن تحملها على وجه السرعة إلى المستشفى "، فاغرورقت عيناه بالدموع وعلت جبينه دكنة، وظل وجهه شاحبًا لحظات لا يقدم فيها ولا يحجم، ثم دنا منها وتحسّس يدها فأحسّ ببردها، ونادى أخته:

" ائتني بملاءتها "، فأسرعت (ميمونة) إلى الخزانة تبحث ما بين الملابس البالية عن ملاءة أمها، ثم سألها (مالك):

" منذ متى وهي على هذه الحال؟ "، فقالت إحدى الجارات:

" كنت في بيتي أحضر فطور الصباح لأولادي، وإذا بأخيك (أحمد) يطرق باب داري طرقا عنيفا، ففزعت وقمت من فوري لأرى ما الأمر وأنا لا تكاد ساقاي تحمل جسمي، وعندما فتحت الباب وجدته أخاك، استفسرته الأمر فقال:

" أمي، أمي... إنها ملقاة على الفراش، أخشى أن تكون قد توفيت! "، فتملّكتني رعشة شديدة ومن روع الصدمة تبعته مسرعة عارية الرأس بلباس البيت، وعندما دخلت عليها وجدتها ممددة على الأرض كخشبة مسندة، تحسّست يدها فوجدتها باردة كأنها يد ميت، سألتها ممّ تشكو فلم أسمع منها حرفا واحدا، وهالني من أمرها أن وجدت على وجهها اصفرارا وعلى شفتيها زرقة وهي شاخصة البصر إلي، فبعثت إلى أختك أطلب منها الحضور فجاءت، أي كان ذلك منذ ما يقرب الساعة ".

(مالك):" ولِم لم تطلبوا لها الطبيب أو تذهبوا بها إلى المستشفى فإن حالتها تنذر بالخطر؟! "، فأجابته أخته:

" ظننت أن أمي تحتضر، فآثرت أن أقضي بجانبها آخر دقائق حياتها، ومنتهى قطرات كأس أجلها... ! "، فقاطعها بلهجة حادة احمرّ معها وجهه وبدا معها شرر غضبه قائلا:

" يا لجهلكنّ أيها النساء! "، حينها تذكّر (مالك) أن أمه لم تنهض هذا الصباح باكرا لتحضير الفطور بسبب ذلك المرض، ثم قال:

" أسرعي لي بها، وألبسيها ملاءتها..."، فقامت (ميمونة) على أمها تقيم صلبها لأنها لا تستطيع الحركة فضلا عن القيام لوحدها، وساعدتها في ذلك جارتها لتلبسها ملاءتها وهي تترنّح ذات اليمين وذات الشمال كلما غفلت إحداهما عن مسكها كأنها الطفل الرضيع الذي لم تنضج عظامه بعد، ثم أشارت (ميمونة) إلى أخيها أن يحملها فحملها ابنها وأسندت رأسها على صدره، وتبعته أخته وجارتها و(أحمد) والدموع تسيل من عيونهم كأنما يودعون ميتا وقصد بها سيارة جاره فأركبها وجلس بجانبها وأوسدها صدره ثم أشار إلى جاره أن سِر بنا إلى المستشفى، وأبوه لا يزال قادما في الطريق لم يلحق بعد.

بقي الجمع خلفهم يرقبونهم من بعيد حتى اختفت السيارة كما تختفي الشمس وقت الغروب، ثم عادوا وقد أوحش البيت كما توحش الأرض حين تغرب الشمس، وعلى وجوههم ترى حزنا وحيرة ودموعا.

لقد تقاسم بكاء (ميمونة) حزنها على أمها من جهة وإشفاقها على أبيها وإخوتها الذين لم يبق لهم عائل يعولهم ولا قائم يقوم على طلباتهم من طهي الطعام وغسل الثياب بعد مرض الأم، والبيت يخلو من النساء غيرها.

واحسرتاه على أخويها الصغيرين الغريرين البريئين، فقد أوشك أن يجفّ النبع الذي كانا يرتشفان منه الحنان والعطف، واليد الحنون التي كانت تضرب على صدرهما لتوقظ فيهما الحياة أو تمسح دمعة ذرفتها عينيهما لتزرع فيهما الأمل، واحسرتاه وقد حرما من البسمة والنغية والقلب الذي ينبض على نغمات روحاتهما وغدواتهما...

... نعم فكل ذلك ممكن ومتيسّر في سنة الحياة، فكم من ولد يتيم وكم من رجل أرمل، وكم من فقير معدم لا يحس به جاره المترف، وكم من مريض يتقلّب على فراش المرض أعواما يشتاق إلى أن يشرب كأس المنية المرير أكثر مما يتطلّع إلى رؤية هلال الشفاء الغائب.

ترى في فناء الدار (صفية) و(آدم) يلعبان مع ابني أختهما لا يحفلان بما يحدث في الدار، ولن يحسّا بشيء إلا حينما تعضّهما أنياب الجوع أو يشتد بهما العطش أوتأخذهما سنة من النوم، فيلجآن إلى أمهما لتغنيهما من مغبة الجوع أو العطش أو تضمّهما إلى صدرها حتى يناما.

ما أجمل هذا العالم البريء الجميل، عالم الطفولة، هذا العالم الطاهر النقي الذي يرضى فيه الطفل بالساعة التي هو فيها ولا يتطلع إلى ما وراء أستار الغيب فيفسد على نفسه ظلما لحظات الود والصفاء، ويعكّر على خاطره جهلا نفحات الخير والجلاء بما يتنبؤه - رجما بالغيب - من الفقر والفاقة، والهم والغم، والفشل والإخفاق.

في هذه اللحظة يدخل (علي) وهو مذهول ووجهه مشرب بصفرة وشحوب، لا تكاد ساقاه تحملان جسمه النحيف من شدة الخوف ووقع الصدمة، ممتقع اللون يعلو جبينه حيرة ووجوم، ترتجف شفتاه فلا تدري أمِنَ الخوف أم أنه يحوقل لِما ألمّ به من المصيبة.

يدخل (علي) البيت فتقابله ابنته وتجري إليه باكية وترتمي على صدره فيحتضنها، ولكنه يا لهفي عليه لا يملك لعنان نفسه لجاما، فتنحدر عبراته على خده صافية حارة، تريد أن تقابل إحسان الزوجة الصبورة بالإحسان، والوفاء بالعهد لها بالوفاء، فهو لم يره أحد يبكي مهما تعاظمت الخطوب أو تلاطمت في بحر حياته أمواج الهموم، أمّا اليوم وقد تعلّق الأمر بزوجته (زينب) فالأمر حقّ له أن يكون معه شأن آخر، ثم قال:

" أين أمك، ما الذي حصل لها؟!"، فتباشره جارته بقولها:

" هوّن عليك يا عمّ، ربما يكون ضغط الدم فقط! "

" وأين هي الآن؟ "

" لقد أخذها (مالك) إلى المستشفى "

(ميمونة):" أرجو أن تأخذني معك يا أبي لأرى أمي وأطمئنّ عليها "

" وهل لزوجك بذلك علم؟ "

" لا يا أبي، ولكنني قلقة كثيرا على أمي "

" الأفضل أن تبقيْ وادعوْن الله تعالى أن يكون في الأمر خير إن شاء الله "، ثم انصرف ليلحق بابنه وزوجته إلى المستشفى.

# -٧-

يخرج (علي) من البيت محزون الفؤاد حيران لا يدري ما يفعل وإلى أين يذهب، فهو يقدم ثم يحجم، ثم يتوكل على الله ويقصد المستشفى، حينها يتذكر هو الآخر سبب تأخر زوجته في النهوض صباحا.

يصل (علي) المستشفى فيسأل موظف مكتب الإستقبال والإستعلامات عن زوجته، فيستفسره عن اسمها وسنها ومكان سكنها وتاريخ دخولها إلى المستشفى، فيجيبه (علي) فيدلّه الموظف بأن زوجته في قاعة الأشعة في الطابق الثاني لتشخيص حالتها.

يسير (علي) متباطئ الخطى، منهوك القوى قاصدا قاعة الأشعة، وكأنه يقصد الصراط فلا يدري أيكون منه على منجاة أو مهلكة، ويصل أخيرا إلى رواق الطابق الثاني، فيجد ابنه (مالكا) حيران وهو يتنقل في الرواق جيئة وذهوبا، فما إن رأى ابنه حتى هرع إليه وهمّ بسؤاله:

" كيف الأحوال مع أمك يا (مالك)؟ "،

" لا جديد يذكر حتى الآن يا أبي حتى يرى الطبيب نتائج الأشعة، وحينها يشخّص الداء "

(علي):" ادع الله أن تمرّ هذه الأزمة بسلام... ولكن أمك لم تكن تشكو شيئًا من ذي قبل؟! "

(مالك):"قدّر الله وما شاء فعل".

لم يكن (مالك) و(علي) ليصبرا على الجلوس دقيقة واحدة في مكانهما، فهما محتاران ذاهبان آيبان، لا يكاد يسعهما مكان، أو يحتملهما الجلوس قلقًا على مصير الأم المسكينة.

وبعد مرور ربع الساعة وهما على هذه الحال، إذ خرج الطبيب من قاعة جهاز الأشعة، يحمل نتائج الأشعة وهو يضع سماعته على عنقه، يلبس مئزرا أبيض لا ترى عليه شيئا من الدنس أو القذى، ووجهه يلمع صحة وصفاء، ويشع حيوية ونشاطا، وكيف لا يكون كذلك وهو الذي يعالج الآلام، ويدفع الأسقام، فأسرع إليه (مالك) وأبوه خلفه يستفسرانه عن حال (زينب)، فقال الطبيب مصوّبا نظره إلى (علي):

" ما هي صلتك بالمريضة؟ "

" هي زوجتي "

ثم نظر إلى (مالك) قائلا:" وأنت؟ "

فأجابه:'' أمي "

فقال الطبيب:" اتبعاني إلى مكتبي "

وقصد الطبيب مكتبه في آخر الرواق وتبعه (مالك) وأبوه وهما على أحرّ من الجمر خوفا وقلقا لسماع ما تمخّض عنه تشخيص الحالة الصحية للأم (زينب)، وكأنهما إلى المقصلة يقصدان، فعلى وجهيهما اصفرار ودهشة وحيرة، يدعوان الله تعالى أن تكون النتيجة خيرا بإذن الله تعالى.

دخل (الطبيب) مكتبه، وبقي (مالك) وأبوه عند عتبة الباب فأمرهما بالدخول ثم بالجلوس. اتّجه إلى مكتبته الصغيرة، التي امتلأت بالموسوعات والكتب الطبية المختلفة إضافة إلى التي فوق مكتبه، أخرج منها كتابا ضخما، فتحه وأخذ يتصفّحه ثم وضعه، وفتح آخر وأمعن النظر في كتابته الدقيقة هنيهة ثم أغلقه، و(مالك) وأبوه شاخصان إليه ببصرهما لا يدريان ما يقرأ.

جلس الطبيب ووضع السماعة التي كانت على عنقه فوق المكتب الممتلئ بالكتب والموسوعات الطبية الضخمة التي نُظِّمت يسار الهاتف، بجانبه حاملة الأقلام التي تزيّنها ساعة أنيقة، وبجانبها دفتر يدوِّن عليه المواعيد والزيارات، وفي وسط القاعة توجد طاولة متوسطة الحجم من خشب الآبنوس الراقي، وفوقها وضعت مزهرية جميلة بها باقة من الأزهار الأنيقة، وقد تحلقت حول المزهرية جرائد ومجلات.

عالج الطبيب بعض الأوراق المبعثرة التي كانت فوق المكتب فنظّمها، وأخذ يفرك رأسه الذي خلا من الشعر إلا قليلا، ثم بانت على وجهه ابتسامة رقيقة تزيد النفس طمأنينة وتداوي الشعور والإحساس وتشرح الصدر، ثم نزع نظارته ووضعها على مكتبه ودعك عينيه، وقد نال مني وأبي القلق لأننا مقبلان على سماع قرار مصيري يتعلق بمسألة الحياة أو الموت، ثم قال وهو ينظر إلى (علي):

" قلت بأن المريضة زوجتك؟"

" نعم يا دكتور"

ثم حوّل بصره إلى (مالك) وقال:" وأنت أمك؟ "

" نعم هي والدتي "

ثم يهز رأسه ويقول:" خيراً إن شاء الله تعالى "

(مالك):" ما المرض الذي تشتكي منه أمي يا دكتور، وما الذي تمخّض عن كشف الأشعة؟ "

(الطبيب):" لقد أصيبت الأم بارتفاع الضغط الدموي... "، وقبل أن يكمل الطبيب حديثه حتى قاطعه (مالك) قائلا:

" لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم، وهل من مضاعفات نتجت عن ذلك يا دكتور؟"، ولكن الطبيب عاجله بقوله:

" اصبر قليلا يا بني فإنه لا راد لقضاء الله إن قدّر شيئا قد جرت به أقلام القضاء، فلا حذر مع قدر..."، ثم صمت هنيهة فأحس (مالك) وأبوه بأن مكروها قد حصل وقال:" لقد سبّب لها ذلك للأسف شللا نصفيا "

(مالك):" ماذا؟! يا لله، واحسرتاه عليك يا أماه ليتني كنت من أصيب... "، ثم يضرب بكفه على جبينه ويحني ظهره ويمسك رأسه بيديه.

(علي):" هوّن عليك يا بني، دع إيمانك بالله كبيرا "

(الطبيب):" لا تجزع يا (مالك) وخذ بنصيحة والدك، وقل الحمد لله على كل حال، فالحسرة والندم لا يجديان شيئا، ولا الإعتراض على قضاء الله وقدره يغير المصيبة، إن مصابكم بلاء داووه بالصبر، " إنما الصبر عند الصدمة الأولى "، كما أن حالة أمك قد استقرّت نوعا ما، لأنه من عادة المرضى الذين يصل مستوى الضغط لديهم إلى هذه الدرجة قلّما ينجون من الهلاك، فقد نجت أمك بأعجوبة لأن الأجل لم يحن، لا ولا الرزق ما نفد "

(مالك):" وهل هنالك أمل في الشفاء؟ "

(الطبيب):" بنسبة أربعين في المائة بالنسبة للحالات المشابهة لحالتها، وقد تساعد نفسها بنفسها في التماثل إلى الشفاء، هذا إن حافظت على نظام الغذاء الذي سأرسمه لها، وأن لا تتوتر أعصابها أبدا، وأن تداوم على الراحة، لأن كل ذلك يزيد من سوء الحالة كلّما زادت نسبة الضغط في الدم، وعلى كل حال فالشفاء في نهاية المطاف بيد الله تعالى وحده "

(علي):" ولكنها يا (دكتور) لم تكن تشكو من مرض قطّ؟! "

(الطبيب) مبتسما:" لا يا عمّ بل كانت، ولكن لم تحدث لها نوبات أو أزمات كهذه التي حدثت لها اليوم من ذي قبل، فلو سبق لها وأن حدث لها شئ من هذا القبيل، أوقامت بالتحاليل حتى ولو لم تحدث لها أزمات لكشف الأطبّاء لها عن هذا المرض، وكلّما كان التشخيص مبكرا كانت السبيل إلى الشفاء أقرب، ولكان وضع اليد على موضع الداء أنسب ".

بعدما أكمل (الطبيب) كلامه، نظر إلى (مالك) وقد تغيّر لون وجهه وأصبح كمن يبحث عن إبرة في كومة القش، وهو يهزّ رأسه ذات اليمين وذات الشمال، ولا ينقطع عن الحوقلة، فأحسّ الدكتور به وقدّر موقفه الذي يقف حياله، وأمره بالخروج إلى الرواق ليأخذ نفسه، وأمر له بكوب من عصير الليمون لعلّ ذلك يسكّن أعصابه، فخرج وبقي الطبيب مع (علي) الذي كانت تبدو عليه أمارات الصبر والجلد.

تابع الطبيب حديثه إلى (علي) قائلا:" فكما أسلفت الذكر لكما يا عمّ من قبل، فعلى الزوجة أن لا تجهد نفسها بالأمور الشاقة، وأن تحترم النظام الغذائي الذي دوّنته لها في وصفة الدواء، وأن لا تتوتّر أعصابها بتاتا، ولكم في هذه المسألة من المساعدة النصيب الأوفر، ولا تسمعوها من الأخبار إلا خيرها، حتّى لا تعود لها الأزمة إلا أن يشاء الله تعالى أمرا كان مفعولا، ثم إن الشفاء بيده تعالى، فربما تشفى قريبا عاجلا إن شاء الله تعالى ".

إنّ أقدار الله تعالى في الفقر والغنى، والحسن والقبح، والعلم والجهل، والمرض والشفاء سيان، هذا يبتلى بفقره وذاك بغناه، وهذه تمتحن في حسنها وتلك في قبحها، وهذا يصيبه المرض فهل يصبر ويحتسب، وهذا في صحته وعافيته فهل يشكر أم يكفر، واللبيب من أحسن البلاء والخاسر من رأى فيه ظلما أو إهانة من الله تعالى والعياذ بالله.

فكم من فقير صار غنيا وكم من غني أمسى فقيرا، وكم من وسيم وذات الجمال أرداهما الحسن والجمال، وكم من قبيح من الناس فاز وأفلح وثقلت موازينه عند الله تعالى، فإن كان عند الذين ينظرون إلى المظاهر الجوفاء لا قيمة له فهو عند الله تعالى في علّيّين، وكم من عالم زحزحه علمه إلى النار لأنّه لم ينفعه علمه ولم ينفع به الخلق، وكم من جاهل وصل بحسن نيّته وصفاء سريرته على قلة علمه إلى برّ الأمان، وكم من مريض لم ييأس من رحمة الله تعالى وعاش حينا من الدهر، وكم من صحيح أمسى في ظلمة القبر.

قال الشاعر:

لا يـيــأسـنّ مــريـض مـن ســلامـته ما دام في جسـمه شيء من الرمـق

كم مات من كان يرجى عيشه فقضى وعاش من كان يخشى موته فبقي

(علي):" شكرا جزيلا يا (دكتور)، لقد كنت لنا نعم الناصح الأمين، هل لنا أن نذهب الآن إلى البيت؟! "

(الطبيب):" بالطّبع يمكنكم ذلك، ومعكم السيدة أيضا، المهمّ أن تقوموا على ما أوصيتكم به من نصائح سواء فيما يخص الطعام أو الدواء أو التعامل مع حالتها، وأن لا تنسوْا لها نظام الغذاء، فلا تأكل مالحا ولا حامضا كاللبن أو المنبّهات كالقهوة والشاي وغيرها، وأن تحرصوا على احترام مواعيد الدواء، وعليكم أن تحضروها إلى المستشفى مرة كل أسبوع للرقابة الطبية، ومتابعة حالتها الصحية وإجراء الأشعة إن تطلب الأمر ذلك ".

نادى (علي) ابنه (مالك) وقد كان في الخارج ينتظر، فحملوا أمه وهي تتهادى بينهما، وعادوا إلى البيت جميعا بعد أن قضوْا أكثر اليوم في المستشفى، وفي نفوسهم قد رسخ لطف ذلك الطبيب وحسن معاملته، وهو الأحرى أن يكون طيّب المعاملة مع الناس.

أنتم أيا طيور السلام، يا من لبستم البياض كما يلبس المحرم ثوب الإحرام، تخففون الآلام، وفي أيديكم معاول تحارب الأمراض وتطرد الأسقام.

أنتم أيا جنود الرحمة، يا من وقفتم على منابر الحكمة كما تقف الأئمة، فإن كانوا يداوون الأرواح لعمري إنكم لتداوون ما ألمّ بالأجساد من جراح، فكونوا طيورا للسلام وكونوا جنودا للرحمة، يفرح بكم الأنام وتسعد بكم الأمة.

# -٨-

بعد مرض الأم (زينب) الذي أقعدها الفراش، ساءت حالة العائلة النفسية والمعيشية معا، لأن المرأة لا مناص من وجودها في البيت راعية ومربية وقائمة على شؤون الزوج والأولاد، ولو أن التنظيف وغسل الثياب وطهي الطعام كانت تقوم به الجارة تارة وابنتها (ميمونة) تارة أخرى، فإن اضطلعت الجارة والأخت بتلك المهام فمن يكون للأولاد إن نقصهم العطف والأمان الذي لن يجدوه إلا من قلب الأم الحنون، ومن يعوّضهم في نفوسهم الفرح والسعادة وقد غابا عنهم وهم يروْن الوالدة طريحة الفراش.

ولكن الأمر لا يتصوّر أن يبقى هكذا طويلا، فمن غير الممكن أن تترك (ميمونة) بيت زوجها لتتردّد على بيت أبيها بين الحين والآخر تخدمهم، حتى وإن صبر عليها زوجها أو غضّ الطرف عن هذا الأمر، لأن الشئ إذا زاد عن حدّه سينقلب حتما إلى ضدّه، فقد يكون زوج (ميمونة) يحبها ويقدّر ظروفها خاصة إبّان هذه الفترة التي مرضت فيها أم زوجته، ولكن ليس على حساب راحته وحياته وأولاده، فإن حقوقه وحقوق أولاده الصغار أوجب، كما أن الجارة كذلك أدّت حقّ الجوار وزيادة، وهي أيضا ذات زوج وعيال فلن تستطيع أن تفرّط في حق بيتها مهما كان حق الجوار كبيرا.

لم يكن يخفى على (زينب) المسكينة أن ترى أسرتها على هذه الحال، حتى وإن تظاهروا بإخفاء ذلك عنها، ولكنها تنقلب حسيرة كسيرة ما بيدها حول ولا حيلة، وهي التي كانت تصول وتجول، طوّافة هنا وهناك، تعمل بجدّ ونشاط، سعيدة القلب، وفي نفسها نشوة وحبور.

ولقد أشارت (زينب) أكثر من مرة على زوجها بأن يتزوج ولكنه يسوّف ويتماطل في كل حين، وفي حقيقة الأمر فما كان في نيّة (علي) أن يتزوج بتاتا، رغم أن الظروف كانت مهيّأة له، وزوجته تقبل ذلك درءا لما لحق بالعائلة من إهمال وتقصير.

ولا يوجد بعد ذلك مجال لأحد من الناس أن يقول:" لقد ظلمها المسكينة "، بلى بل إنّهم سيقولون:" أنظروا إلى خائن العهد، عندما كانت سليمة قائمة على ساقيها لم يجرؤ على الزواج عليها، حتى إذا رأى منها العجز وأقعدها المرض راح يلهث وراء النساء... "، وفي الحقيقة فإن إرضاء الناس غاية لا تدرك، ألا يا أيها الأكّالون للحوم البشر رفقا بأنفسكم أن تهلك، وهونا بإخوانكم لا تؤذوهم، فإنه لو كان للأنفاس التي تخرج من أفواهكم ريح لأنتنت الدنيا من روائح اللحوم الميّتة التي تلوكونها، ولما استطاع أحد أن يقربكم.

وفي الحقيقة فإن (عليا) وإن كان من حقه أن يتزوج بعدما مرضت زوجته، حتى إنها هي التي تكلمت معه شخصيا في أمر الزواج، ولكنه لا يفكر فيه مطلقا صونا للعهد الذي قطعه على نفسه تجاه هذه المرأة الطيبة الصبورة، كبيرة القلب، وحفاظا على شعورها من أن يمسّه خدش أو يشوبه تكدير، فهو لم ير منها طوال السنين التي عاشها برفقتها ما يهوّن عليه أمرها أو ينسي معاشرته لها أو ينغّص حياته معها، ممّا قد يراه منها من سيئ الخلق أو النشوز أو الإعراض أو الإعتراض على المعيشة قلّ الموجود فيها أو كثر، فهي الودود دائما، البارّة دائما، الصابرة أبدا، وهي أم ولده الذين ذاقت لأجلهم المرّ، سهرت وتعبت وربّت، ونال منها النّصب والتعب، فهل يتزوّج عليها بعد كل هذا.

ما أحوجنا إلى هؤلاء الأزواج في هذا اليوم، أزواج البارحة يروْن العصمة في يد الرجل لا يتعدّاه أحد إليها، ولا يجرؤ أحد أن يمسّ قداستها، والقوامة حق له لا تسوّل نفس الواحد أن يرتع في حرمها أو يقع في حماها ألا وإنّ لكلّ ملك حمى، ألا وإن ّ حمى الرجل في أسرته إن تكلّم أن يصغى إليه، وإن أمر أن يؤتمر بأمره، وإن نهى انتهى أهله وولده بنهيه في الحق والخير والمعروف وليس ذلك نزوة أوتعسّفا إذ المسؤولية تكليف لا تشريف.

هو الملك في مملكته، والذائد عن حماها، لا تردّ له الزوجة أمرا، ولا الأبناء طلبا، تهابه الزوجة، ويخافه الصغار، إن أتى قالت الأم:" لقد أتى أبوكم "، فساد الصمت والنظام والسكينة، وإن عصى الأبناء أمرا خُوِّفوا بأبيهم، وإن دخل البيت قبّلوا يده طاعة وعرفانا وإحسانا.

وليس ذلك من باب زرع الخوف والرعب في نفوس الأبناء والزوجات، أوإطلاق الحبل على الغارب للآباء يتفنّنون في فرض السلطة الشرعية والقهرية عدوا على أهليهم، إنّما ذلك يكون ساعة وساعة، فإن رأى تقصيرا من زوجة أو ولد أشهر سوط الأخلاق والتذكير فإن لم يكن لها وقع في السمع قرع طبول التهديد والوعيد، فإن لم تُفِد هذه ولا تلك ضرب ضربا غير مبرح وهجر هجرا غير قاس، وهكذا يدير هذا الملك دولته ممتطيا إلى ذلك جواد التذكير والوعظ حينا، فجواد التهديد حينا، فجواد الضرب الرفيق الشفيق الذي لا يدمي ولكنّه يربّي أحيانا أخرى، والقوامة ليس معناها أن يمثل الأب دور ذلك الظالم المستبدّ الغاشم كما يظن البعض، إنما هي سياسة حكم ينتهجها الآباء في بيوتهم ومنهج تربية تعتمد على الأخلاق والدين.

أيها الزمن الذي قد ماتت أيام عزّه الغرّاء، وانطوى تحت الثّرى ذكر سلطان دولته الغالي، أين أنت اليوم من أيّام عزّ السلطة الأبوية وسيادة مملكتها، فقد نشزت الزوجات وعصيْن أزواجهن، وتفنّن الأولاد في العقوق وطردوا آباءهم إلى ديار العجزة، وخرجت البنات كاسيات عاريات لا يردّهنّ أب ولا تزجرهنّ أمّ ولا يخفن من أخ، فأصبح الرجل في البيت لا سلطان له لا على زوجة ولا على ولد ولا على بنت، فرحم الله تلك الأيام وأردّها اليوم إلينا كما كانت بالأمس القريب عزيزة السلطان مرهوبة المقام.

# -٩-

وتتالت الأيام العصيبة على عائلة (علي)، فكان لكل فرد فيها عندما مرضت الأم وقعها المرير عليه، فزوجها فقد زوجة عطوفا وقلبا رؤوفا وأُمّا رؤوما وأختا حنونا، وملاذا يلوذ إليه كلما اشتدّت عليه الأزمات وعضّته النوائب، والتوأمان الصغيران قد حُرما من الحنان والعطف والصدر الذي يغذّيهما الأمن والشفقة والإطمئنان، و(أحمد) و(مالك) على كبر سنِّهما إلا أنهما محتاجان إليها خصوصا في زمن ضجّ فيه أهله وضاقوا بما لا يقدرون على حمله من أعباء تضعف عزائم الأقوياء وتكلّ كواهل الأشدّاء.

وهكذا تصاب الأم (زينب) بالشلل النصفي الذي أقعدها عن العمل والحركة والكلام إلاّ قليلا، وأصبحت طريحة الفراش لا تقوم للأكل أو الشرب أو الغسل أولقضاء الحاجة إلاّ بمساعدة جارتها أو ابنتها اللّتان تتردّدان بين بيتهما وبيت (زينب) للقيام بأشغال البيت، فهي لا ستطيع أن تقيم صلبها فضلا عن قيامها على شؤون بيتها وأسرتها.

عمّ البيت الذي كان يضجّ بالحركة والنشاط سكون ووحشة، وساد الجو العائلي ركود وخمود بعدما كان يهيج ويموج بالمرح والسعادة والنشاط، وأصبح الجميع صغيرهم وكبيرهم مطرقون في التفكير في مصير الأم لا يهدأ له بال، ولا تدركه الغفلة لحظة عن حال (زينب)، وأنّى لهم ذلك وعماد البيت به صدوع، وأساسه به شقوق وسقفه قد أوشك أن ينهدّ على رؤوسهم.

أسفي وحسرتي على بيت أصبح موحشا بعدما كان مرتع السلوان، وصار خاليا من فرحة وأمان، وأقفر بعد أن كان روضة وجنان.

أسفي وحسرتي ما أشد هذه الظروف التي تمر بها عائلة (علي) وما أصعبها، فليس الفقير فقير المال والجاه إنما الفقير من عُدِم السعادة والسكينة في بيته، وفقد العلم والأخلاق في ذاته، وساد العقوق وسوء الأخلاق في فلذاته، فهل رأيت كامل العقل والحِجى يرى في المال والجاه بديلا عن علمه وأخلاقه، أم هل رأيت سليم الفكر والنهى يرى في المال والجاه عوضا عن صحّته وسلامة بدنه؟!، إنما المال وسيلة لا غاية في ذاته، وتحصيله يتعيّن أن يكون من حلال وأن يصرف في حلال، وفقير ذو عفّة وعلم وكرامة خير غني جاهل بذئ.

# -١٠-

بعد فجيعة الأمّ (زينب)، توالت زيارات الأقارب والأصدقاء على العائلة، وكذلك توالت الرسائل على (مالك)، فكان يستقبل بين اليوم والآخر رسائل من أصحابه ومعارفه، ولكنّ ما شدّ انتباهه يوما أنه تلقّى من أحد أصدقائه رسالة، تفرّقا عن بعضهما منذ حوالي سبع سنين، حينما كانا طالبيْن في الجامعة وقد دامت صداقتهما طيلة أعوام الدراسة في معهد الآداب، ثمّ بعد افتراقهما عوّضا ذلك اللقاء بالرسائل حينا من الدهر دام عاما، ثم لظروف ما انقطعت تلك العلاقة حتى جاء اليوم الذي سمع فيه الصديق خبر أم صديقه (مالك) بعد إصابتها بالمرض العضال الذي أقعدها الفراش، فهمّ بالكتابة إليه لعلّ أن تكون في رسالته تعزية وسلوى عمّا أصاب من البلوى.

يقول (مالك):" في يوم من الأيام، وبعد مرور أسبوعين عن مرض والدتي، وبينما كنت أتصفّح البريد الوارد في ذلك اليوم، إذ شدّ انتباهي اسم كتب خلف ظرف الرسالة، حملتها أعدت قراءة الإسم مرة ومرتين، ثم صحت (ياسين)، وأخذت أفتح الرسالة بلهفة، عندها قرأت:

" صديقي وأخي العزيز (مالك) السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد:

هأنذا أرفع هذا القلم المتواضع الكليل على وجل وخجل، لأخط ما جال بالخاطر وجادت به القريحة، لأتذكر عهدا غبر، وإن مع الذكرى حياة للقلوب، وإن معها بعث للأرواح والأفراح فيما سلف من الأيام.

ساءني أن ننقطع بعدما كنا كالحاجب للعين، والأسوأ من ذلك أن أسمع أخبارا عنك لا تسر عدوا ولا صديقا.

أي صديقي:

شيئان لو بكت الدماء عليهما عينــاي حتى يؤذنـا بذهــاب

لم يبلغـا المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الأحبـاب

ليت شعري، فكيف أبكيك وأنت حيّ تدب في نفسك الحياة، وإني لأجد نفسي مقصرا في حقك حق التقصير، ومفرِّطا بالغ التفريط إذ أصبح الزمان يفرقنا ونحن أحياء.

ثم إنّي لأبكيك لما أصاب أمي العزيزة (زينب)، فهي التي طالما أكلت من طعامها وسقيت من شرابها ومنيت بالدعاء منها، فصرت أتفيأ بين نعمتين وقلبين: أمي التي حملتني وأمي التي أصابها المرض شرّ مصاب.

آه يا صديقي:

لن تنفع الدموع ولو كفّ ضوء بصري، ولن أردّ حقا كان دينا قد أثقل كاهلي ولو احترقت كبدي حزنا وكمدا على ما أصاب أمك، وإني أعدك أن أزورك قريبا إن شاء الله تعالى، فذلك أجدى وأوصل لما كان بيننا في الأيام السوالف، وبعد:

فإنني أدعو الله تعالى أن يلهمكم الصبر على هذا البلاء العظيم، وأن يجعله ذخرا للوالدة لما عانته من الحزن والهم والألم، وأن يجعله لكم في ميزان الحسنات لما أصابكم من الهم والغم والصبر الجميل على مرضها، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

المخلص: ياسين عبد الرحمن

حينما تلقيت هذا الكتاب من صديقي (ياسين)، شدني الحنين إلى أيام الجامعة وأيّام الدراسة، وأكبرت هذا الصديق الوفي في قلبي، فهو ما زال يذكر عهودا خلت وأياما شابت، وهو يواسيني في هذا المصاب الذي أصابني، عندئذ أخذت كراستي وقلمي وكتبت:

صديقي العزيز وأخي الوفي (ياسين) السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد:

لم أجد منذ أن أصابتني هذه المصيبة شيئا يعزيني إلاّ هذا الكتاب الذي وصلني منك، فقد أحسنت كما كنت تحسن دائما إليّ أيام كنا في وصال، فمنذ أن قرأت رسالتك وكأن بلسما وُضِع في موضع الداء من جسدي، فبارك الله فيك وأحسن إليك.

لقد كُوِيت بجمرتين: مرض أمي الحبيبة من جهة، وكذلك بما أهمّني من فقدان العائل الذي يقوم على شؤون البيت، وكم ألححنا على والدي بالزواج وكذلك فعلت أمي عند مرضها، ولكنه الرجل الطيب الوفي، لا يريد بأن يتزوج عليها لعله يجرحها بأخرى، فهو يرى إن فعل ذلك نكرانا للجميل وإخلالا للوفاء بالعهد لها، ثم انتهى الأمر بأن اقترحوا عليّ الزواج ولكنني لست مهيّأ لذلك نفسيا ولا ماديا، ثم إنني لم أجد بعد من تصلح لي زوجة مع كثرة البنات حولي، فإنني لو عدّدت لك ما أحبّذه في المرأة من طباع وأخلاق ومعاملة لحكمت بأنني أحلم ولن أجد من أبحث عنها.

إنّني لمحزون أشدّ الحزن لوفاة الأمّ الحبيبة، وليس أعزّ على القلب من الأمّ الرّؤوم.

صديقي العزيز(ياسين):

لا أدري لماذا يضِنّ هذا القلم عليك بالكتابة فإنني أجره جرا، ولكن روحي من الأحزان مكلومة، ونفسي من النكبات مهمومة، إذ لو علم ما في قلبي لك من الحب والإعزاز لما اكتفى بما جادت به قريحتي، ولظلّ يشق عباب هذه الصفحة إلى أخرى وأخرى، وبعد:

فإنني أنتظر قدومك بفارغ الصبر، وإن كان الصبر مر المذاق فإن الصبر للقائك - وإن كان صبرا - فهو أحلى من العسل.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

المخلص: مالك علي.

# - ١١-

لقد كنت كذلك من هواة الإستماع إلى الإذاعات المحلية والدولية، وبين الحين والآخر كنت أبعث ببعض المشاركات الأدبية المتواضعة تواضع هذا القلم الذي أكتب به إلى إذاعتي التي أعتزّ بها، فيلتقي - عبر الأثير - شعوري وإحساسي وروحي بهؤلاء الأصدقاء الذين أعتزّ بهم كذلك.

وعلى إثر الفاجعة الأليمة التي بُليت بها عند مرض الوالدة التي أدعو الله تعالى لها بالشفاء، وإذا بي وأنا أستمع إلى هذه الإذاعة في أحد الأيام، أن جمًّا غفيرا من أصدقاء الأثير الذي كنت أراسلهم، ومنهم من لم أكن أعرفه، ولكنّهم راسلوني لأنهم أصدقاء للبرنامج، يبثّون تحياتهم الخالصة عبر الأثير مباشرة أو عبر الرسائل لما ألمّ بي في ريحانة الفؤاد جبرا لخاطري، وتنفيسا لكربتي، ووقوفا إلى جانبي، وأنعم به من صنيع.

لقد أكبرت صنيع هؤلاء الصّحب في نفسي، وقرّت برسائلهم عيني، فجعلت لهم كتابا خططْته تعبيرا عن امتناني وسعادتي بهم وبهذه الإذاعة العزيزة، ولقد كتبت إليهم عبر الأثير أقول:

يا جنّة العشاق، يا روضة الرّفاق، يا نغمة الخلود

و الشعراء جنود، على العرش قعود كأنهم أسود

\*\*\*

فــردوس الأثير إذاعتي إليك السـلام رائـحُ

أنت الجنان والرياض فيك الشحرور سائحُ

أنـت الحدائــق تزدهي، فيــك النعمان فائـحُ

و الغصن فيك مورق، والشوق إليك محرق

و البعـد عنك مقلـق، والقـرب منـك مفـرح

فيـك الثقافـة والعلـوم والأنـس فيـك سابـح

و الـقـول فـيـك بلـسـم والـكـل فـيـك يغـنـم

بالشعـــر فيـك ننعـم والـود فيـك جـامـــح

فيـك النفـوس تلتقي، فيك المواهــب ترتـقي

من حطّ فيك ما شقي، من هاموا فيك ما صحوا

فاقــت براعة من رسم، دحضت أقوال من اتّهم

حـتى غدت لي كالعَلَمْ، أنّى ذكرتها لم أنم

\*\*\*

فــلأنـت أجـمـل لـوحـة لا تقبل التزيينا

و لأنـت أبـدع وردة لا تـقـبـل التـلـوينا

كم كفكفت لي أدمعا، وأفرحت قلبي معا

و أمــتعتـني مسـمـعا، كـم خفـّفـت أنيـنــا

هل قلت فيها ما شطط، أم قلت عنها ما غلط

القلب بها قد رُبط، أم قلت فيها يقينا

بل قلت فيك ما صدق، وزيّنت بذكرك ذا الورق

سواك قلبي ما عشق، وفي هواك أمينا.

# -١٢-

حملت محفظة التدريس هذا الصباح، وكان لي موعد لتدريس كبار السن ومحو الأمّية في مدرسة القرية، وفي الطّريق إلى المدرسة أشدت بالعلم والعلماء، وهو إخراج من الظّلمات إلى النّور، ومن الموت إلى الحياة، ومن القبور إلى النشور.

نظرت إلى هذا القلم الذي أكتب به، وأنشدت في حقّه أقول:

يا من أقسم بك الحق فقال: " ن والقلم وما يسطرون ".

أنت الذي أنرت عقلي بالعلم، وملأت قلبي بالحلم، وعمرت روحي بالنور، وزيّنت حياتي بالخير.

أنت الذي تجوب فيافي القراطيس الجرداء لتملأها سطورا كما تمتلئ الحديقة أشجارا وثمارا وزهورا، فتكون للقارئ حديقة، وللمستفسر جنة يصيب منها ما شاء من ثمرات العلوم والتاريخ وخيرات الفقه والآداب ونفحات الفنون والإبداع، ويتفيّأ في ظلال هذه الجنان الفينانة بعدما كانت قاحلة جرداء، لا تنبت شجرا ولا تطعم ثمرا ولا تظلّ من هجير.

أنت الذي تستنفد دمك قطرة قطرة حتى ينتفع بك من رافقته الليل والنهار، ولا يعبأ أن يرديك قتيلا بعد أن استنفد دمك وسقى ذلك المداد أوراقك ليرميك بعد أن كنت له المرشد والهادي.

أنت الذي ينتسب إليه كل عالم وأديب وباحث وفنّان ومؤرّخ وفقيه، فتجعل من كل واحد منهم نبراسا في الحياة ينير درب العارفين وعَلَما في العالمين يُهتدى به كالمنارة في لجّة بحر الحياة وخِضمِّها، وما نورهم إلاّ قبس من نورك وامتداد لشعاع ضيائك.

أنت الذي بفضلك أقيمت الحضارات وشِيدت الأمم ومكّنت الإنسان من الصعود إلى المرّيخ، فجعلت لمن قدّرك هيبة ورفعة ومكانة، وجعلت لمن استغنى عنك ظلاما وضلالا ومهانة.

أنت من كان سببا في أوّل ما نزل من القرآن:" اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم "، فحقّ أن يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء.

أنت الذي أسلمتَ عنقك إلى يديْ من يريد علما، ويكفيك شرفا أن يعيش - من أراد إلى حياتك مصرعها - في كنف فضلك وفي أحضان ما تخلّفه من علم ونور ومعرفة.

أنت الذي سوّدت الأيادي بالمداد فتضجّر منك حاملك وتأفّف، حتّى إذا أدرك بأن سواد المداد قضى على سواد ظلمة الجهل قبّل رأسك عرفانا وانصرف.

أنت الذي أحنيت رأسك تواضعا لترفع الرؤوس وتعلي الهامات، وأسدلت قامتك لتقيم الحضارات، فيكفيك أن نلت شرف التواضع ونلنا شرف الرفعة.

أنت الذي عكفت ساجدا لخالقك على ما تقدّمه من الخير والعلم والنور، فكان الأحرى بنا أن نسجد أكثر من سجودك لما نقترفه من الذنوب والآثام بالليل والنهار.

أنت الذي أمسكت بك سجينا بين أصابعي فنسجت بك ما جال في فكري وخاطري لأخلّد ذكرك.

فدمت صديقي إنّك نعم الصديق، ودمت مؤنسي فأنت نعم الأنيس، ودام رأسك شامخا، فقد تخلّد ذكري كما خلّدتُ ذكراك.

# -١٣-

إنه يوم الخميس، وكان من عادتي في هذا اليوم أن أذهب إلى المستشفى لأزور المرضى، فإن علمت أن أحدا أعرفه مريضا عدته، وإلا ذهبت لأعود من وجدت من المرضى لأغنم الأجر، ولأن ذلك سيكون لهم في أنفسهم تعزية وسلوى.

وكان من بين المرضى الذين كنت أزورهم واعتدت على زيارتهم عمي (صالح)، وقد طال به المسكين المرض، وقلّما كنت أجد عنده أحدا يزوره إلا مرتين أو ثلاثا حينما كان أحد الزوار يعوده، فلما سألته عنه قال إنه ولده، ومن ذلك الحين لم أعد أراه، فأشفقت عليه وعزمت على عيادته وتفقّد أحواله بين الفينة والأخرى ثوابا من عند الله تعالى، وجبْرًا لخاطره.

لقد مكث في المستشفى بضعة أشهر لأنه أصيب بمرض المفاصل فاستدعى ذلك رعاية طبية مكثفة.

وكثيرا ما كان يتألم حينما كنت أزوره وخصوصا إذا ما اشتدّ البرد كما هو عليه هذه الأيام، وكنت أرى على وجهه من العبوس والحزن والشحوب ما حيّرني أمره، فظننت أنه عامل نفسي تمخّض عن المرض وتكبّد مشاقّه وآلامه، فاستوحشت عيناه أن ترى طائر الكرى يحط على بابها، ونفرت نفسه من أن تذوق طعم المنام، كما نفر فاه أن يجد لذة الطعام، وظلّت نفسه في كربة وتسهيد، ولكن ظني أخطأ، إذ صارحني يوما بأمر يخصّه.

سألته يوما:" ما الذي أدّى بك إلى هذه الحالة من تدهور صحتك؟ "، فأجاب:

" كنت حال صغري أعمل في الحقول فكنا نحرث الأرض بالمحاريث الخشبية التي تجرّها الدواب، وكنا نعمل حيثما اتفق، لا نبالي بالجو إن كان باردا أو ممطرا أو تساقط الثلج، نلبس الرث من الثياب التي لا تقي حرا ولا قرا، وننتعل البالي من النعال التي غدت أرجلنا فيها كالأخشاب من فرط ما نالها من البرد، وكنا نظن حال شبابنا أن تلك القوة والنشاط والصحة والعافية لا تهدها العواصف، ولن تنال من عزمنا الأهوال، كنا نظن بأننا نقاوم الطبيعة، وعبثا ما صنعنا.

لم أشعر حينها أن تلك الأمطار والثلوج التي كانت تتساقط على ظهري ورأسي حتى ينفـذ البلل إلى جسمي أنها سوف تتحول مع مرور الزمن وتعاقب الأيام علة ومرض، وتتالت الأيام ونحن نحاول مصارعة الطبيعة بزعمنا ومقارعة الصحة باللامبالاة حتى آل مصيري إلى ما أنا عليه اليوم.

ثمّ سافرت إلى المهجر بدافع الفقر لعلّ حالتي المادّية تتحسّن، فذهبت مخلّفا ورائي زوجة وأولادا "، ثمّ صمت هنيهة لعلّه يفكّر في أمر يضمره في نفسه لا يريد البوح به، ثمّ قال:" لقد تحمّلت في سبيل ذلك الأمرّيْن، غربة وفرقة للأحباب واشتياق للأهل والأولاد... ".

" وهل كانت لديك عائلة حينذاك؟ "

طأطأ (صالح) رأسه واحمر وجهه واغرورقت عيناه بالدموع، ولكنه لا يريد أن يظهر عليه البكاء، ليس لأنه يرى فيه نقيصة، فكم خفّف من آلام جاشت بها الصدور وكم أذاب من هموم قاحت لها القلوب، ولكنه لا يريد أن يبوح بسر دفين في قلبه قد نزل، ولا يحبّ أن أسأله عن شيء قد ينكيء له جرحا ما اندمل.

أحسست بذلك منه فلم أجرؤ على أن أحرجه بالسؤال عن ذلك السر، وتجاهلت أمره، ولكن السر الذي دفنه في صدره قد تلفظه يوما ما صوارف الأيام، وسأكون له بالمرصاد إن قدرت على مداواة آلامه النفسية التي غارت حتى فاقت آلام مرضه الجسدية.

لست أعلم لماذا يئن هذا الرجل الكريم أنين المرأة الثكلى التي فقدت بنيها، ولست أظن كذلك أن هذا من جراء المرض الذي يعانيه فحسب لأن ذلك العبوس يظهر على وجهه لا يفارقه، حل به الألم أو زال، وسيكون لي موعد مع السر المحيّر الموارى في محل الأسرار يوما ما.

تجاهلت أمره وتظاهرت بأنني لم أر دموعه ولا أحسست بأمره حفاظا على شعوره، وأعدت له السؤال:" هل كنت متزوجا آنذاك وكان لديك أولاد؟ "

فأجاب:" وعلى من كنت أتعب وأشقى إذن!؟، لقد رزقني الله تعالى خمسة من الولد، سهرت على تعليمهم وتربيتهم حتى شبوا، وكم نالني من ذلك النصب والسهر، وما كانت صحتي لتؤول إلى ما آلت إليه إلا بسبب تلك الأعمال المضنية التي كنت أقوم بها "

" وزوجتك اليوم، هل هي على قيد الحياة؟ "

" نعم، ولكنني طلّقتها منذ زمن، ومردّ ذلك أن زوجتي هذه امرأة صعبة المزاج، سيئة الطباع، لم ترْعَ لي حقا، ولم تكن لي سندا ".

يطأطئ العم (صالح) رأسه فتغلبه الدموع ويردف قائلا:" صبرت عليها عشر سنين أمهلتها فيها لعلّها ترعوي، وعظتها وزجرتها وهجرتها ثم ضربتها، فلم يُجْد شيء من ذلك معها شيئا، فلمّا يئست من صلاحها طلقتها بعد أن أذاقتني وأطعمتني أمر الكأسين، كأس الحرقة على أبنائي الثلاثة وهم بعيدون عني، وكأس أخرى وهي أن القضاء حكم لها بامتلاك المسكن الذي كنا نسكنه، وكنا نحسبه عشا لا تقضّ أركانه العواصف مهما كثرت ولا النوائب مهما اشتدت ولا الهموم مهما عظمت".

قلت له:" أراك تحمل همّا ثقيلا يا عمّ (صالح) ! "

فأجاب:" كيف لا يا بنيّ؟ إنّه همّ تنوء بحمله الجبال الرواسي، وهل أهنأ وقد تبعثر الشمل بعد أن كان ملتئما، وتفرق الوكر بعد أن كان مجتمعا وتشتّتت الأسرة بعدما أظلها سقف واحد، وعاشت بين أربعة جدران حقبة من الزمن، تقاسمت مرّ العيش وحلوه، وأفراحه وأتراحه، وسعدنا برهة من الحياة بأولادنا الخمسة، إذ كنا نؤمِّل فيهم الأماني، ونرى فيهم المستقبل المنشود".

يتوقّف عن الحديث قليلا ملقيا ببصره إلى الأرض، ثم يحوّل بصره إليّ قائلا:

" يا بني! إفعل الخير وانساه فإن الله تعالى لن ينساه وسيذكرك به يوما ما، إنْ بتفريج كربة أو تيسير عقبة أو صلاح في ولد، المهم فإن الله تعالى لن ينساك ولن يبخسك حقّك، وإياك، إياك ووالداك، فإن أردت النجاح والفلاح في الدارين فقدّم لنفسك في قبرك من طاعتهما والبر بهما ما يجعلك جديرا بذلك.

كنا نحلم بـ (محمد) طبيبا و(سعيد) مهندسا و(عبد الرحمن) أستاذا، وكنا نأمل أن تكون (سمية) معلمة و(آمال) طبيبة، أو حيثما اتفق، وكل لما يسره الله تعالى له من الدراسة والإختصاص، المهم أن يتربّوْا ويتعلموا ويكونوا من خيرة الأبناء، ولكن أنى لي ذلك وأنا أزرع الشوك وأريد أن أحصد البُرَّ، وأزرع العقوق وأريد أن أحصد البِر، هذا زرع بذرته يداي، وحصاد أجني ثمراته المرّة، وتلك سنة الله الباقية إلى يوم الدين "

سمعت حديثه هذا وقد شدّني إليه ما باحت به سريرته من آخر كلامه، فاستبشرت وقلت لعل الشمس ستطل في سماء هذا السر المغيّب المستور، ولعل الغمام الذي حجبه ستذهب به شمس الحقيقة وتنسفه رياح البيان فيظهر ويستبين، فقلّبت النّظر في الأمر على وجوهه، وحاولت أن أقرأ ما بين السطور فلم أعثر على جواب وظلّ اللّغز مستورا.

ثم قلت له:" ولماذا تذكر أبناءك الثلاثة دون الخمسة، ألم يعيشوا معك كلهم؟! "

فأجاب:" نعم فقد حكمت المحكمة بالبيت لها، وبالأبناء الذكور كذلك، وحكمت لي بحضانة البنتين بطلب من أمهم، ذلك أنها لا تستطيع القيام على تربيتهم جميعهم، وحسبي منهما أنني رويت بعض ظمئي الذي كان يحرق قلبي بسبب أولادي الذكور، وحسبي منهما أنني كنت أتبلغ من رؤيتهما ما يذهب نارا تلظى كانت تحرق كبدي، فكنت بالبنتين كالذي أرهقه الظمأ في هجير فلاة قاحلة وكانتا لي كالماء الذي يرويني إلا أنه لا يبلغني سفري، ولكنني لن أهلك لأن تلك القطرات ستنجيني وتبلغني بعض مرادي ولكن في كبد.

أبنائي الثلاثة (محمد) و(سعيد) و(عبد الرحمٰن)، لا أعلم حالهم، رغم أنني كنت أراهم من حين لآخر عندما آخذ المنحة الشهرية لأمّهم، أو في نهاية الأسبوع ".

ثم يجهش بالبكاء ما شاء الله أن يبكي، فضربت على كتفه وقلت:" هوّن عليك يا عم (صالح)، واحْكِِ لي ما دفنته في صدرك فإنك بالإفصاح ترتاح، روّح عليك فأنا مثل ابنك ".

يضيف (صالح):"... نعم يا بني، فمنذ زمن لم أرتح لأحد ارتياحي لك، فإن قلبي من الكتمان في حرقة وزفير، وأريد أن أطفئ النار التي تأججت فيه.

كنت أتمنّى لأبنائي أن يشبّوا على الصلاح والخير، أربّيهم وأعلمهم القرآن صغارا، وأسهر على تدريسهم وطلباتهم، وأوفر لهم الجو الملائم عسى أن تقرّ بهم عيني وهم ينالون الدرجات في علمهم ويحسنون ذكري وذكرهم بأخلاقهم فيكونوا لي من الصدقات الجارية بعد موتي.

تعبت... لقد تعبت كثيرا، وسهرت وكنت أغيب عن البيت أحيانا أسبوعا أوأكثر، وعندما كنت بالمهجر كانت تطول غيبتي عن البيت لشهور، وكيف لا أتعب وأنا الذي كنت أظن نفسي أنني تلك الشمعة التي تحرق نفسها حتى تنير درب أبنائي، وكنت أظن أنني ذلك الجدار المانع الذي يصدّ عنهم العواصف التي قد تحل بهم، وكنت أحسب أنني ذلك المقاتل الجسور الذي يمنع عنهم تلك الوحوش الضواري من الفقر والجوع والمرض والحاجة والجهل و... "

ثم ينكّس بصره إلى الأرض ويقول:" آه ثم آه... حسبتك يا أم أولادي سندي ومددي ومأوى لولدي، ما الذي دهاك، وما الذي ضرك حتى فرّقت شملنا، ألم يكن لك من الخير أن تبقيْ في عشك الذي بنيناه عودا عودا، ألم نتعاهد على أن نعيش على الحلو والمر، في حال الغنى والفقر، وإن أصابتنا سراء أو ضر، نتواصى بالحق ونتعاهد على الصبر، نرعى أفراخنا حتى يصيروا كبارا فنحوز بتعليمهم وتربيتهم كل الفخر.

ألم يكن من الخير لكِ أن ترعيْ حقي وحقّ أولادنا، وترين تلك الأزهار فلذات كبدنا يكبرون يوما بعد يوم، وينشؤون في ظل الحب والود، ويترعرعون في كنف الصلاح والعلم، ويتفيّؤون في جنان العطف والحنان، تشتد أعوادهم في تربة صالحة وتهُبّ عليها نسمات الأخلاق ويسقوْن من ماء الفضيلة ويذاد عنهم أشواك الشر والسوء والرذيلة.

ثم بعد ذلك لم تقنعي وأشهرت معولا للإفساد هداما، فجعلت من تلك الحديقة الغناء قاعا صفصفا، بل وأصبحت صعيدا زلقا، فهبت على عشنا المأمون ريح سموم اقتلعت كل غض طري، أخضر فتي، ترف فيه طيور الفرح وتغرد بكل لحن شجي، فأصبحت لا أرى إلا هشيما تذروه الرياح.

أما في قلبك رحمة حتى فرقت بيني وبين أولادي، أما ينبض قلبك بالحنان وأنت تنهضين كل صباح وتمسين كل مساء، وتبيتين كل ليلة وأنت لا ترين تلك الفراشات اليافعات تحلقن هنا وهناك، وتلثمن ثمرة وتشممن زهرة...؟!"

... ولم يكمل العمّ (صالح) كلامه حتى سمعنا جرسا ينذر بانتهاء موعد الزيارة، بعدما قضيت معه قرابة الساعة، فودّعته وافترقنا، وقد قرّح عيني من البكاء وأدمى قلبي من شدة الحزن والأسى.

# -١٤-

كان ذلك يوم الجمعة، حينها كنت بالمزرعة، وإذا بأخي (أحمد) يأتي إليّ ويخبرني بأن أحد الشبان يريدني.

" مالك، مالك…"

" نعم يا (أحمد) هل من شئ تريدني لأجله؟ "

" إن أحد الأصدقاء يقال له (ياسين) أتى زائرا، لقد جاء وأمه وأبوه وأخته "

" نعم، نعم، (ياسين) لقد وعدني بالزيارة منذ أيام، هل هم بالبيت؟ "

" نعم لقد رافقهم أبي وهو معهم الآن، وبعثت إلى (ميمونة) لتستقبل النساء وتحضر لهم القهوة"

" حسنا، سأغيّر ثياب العمل على الفور وآتي، إسبقني إلى البيت "

غيّر (مالك) ملابس العمل وأخذ يسرع الخطو إلى البيت حتى وصل، دخل (مالك) البيت فإذا بالضيوف في قاعة الإستقبال.

(ياسين):" أهلا بصديقي العزيز (مالك) "، وسالت من عينه دمعة خالطها نحيب، وأخذ به إلى حضنه وضرب على كتفيه.

(مالك):" أهلا وسهلا بك يا أخي "، وسالت دمعة من عينه كأنما أرادت أن تقابل الإحسان بالإحسان، وأن لا تترك أختها وحيدة، ثم توجّه إلى أبيه وسلم عليه، ثم إلى أمه وسلم عليها، فسلمت عليه وعيناها تجودان بكثير من الدمع، فقال لها:" هوِّني عليك يا عمّة ".

بعد أن أدّوْا مراسيم الترحيب والإستقبال، بقي الرجال في قاعة الإستقبال، وتوجّه النساء إلى الغرفة التي توجد بها الأم (زينب)، وأخذ كل واحد منهم يتجاذب أطراف الحديث مع من يرى فيه أنسه.

ومن تلك النظرة الخاطفة على الأسرتين، بدا وكأنهم يعرفون بعضهم جيدا، لقد أنس (مالك) بصديقه (ياسين)، فبعد فراقهما هما الآن قد جدّدا عهدا غبر، فبعد أن كان (ياسين) صديقا فحسب أصبح اليوم أخا حميما كذلك، وأنس (علي) بوالد (ياسين)، ورأت الوالدتان من الود وكأن بينهما معرفة ووصال قديمين، كما استحسنت (ميمونة) أخت (ياسين) وأَلِفتها أُلْفتها لأختها فهي لا تفتأ ترمقها بنظراتها، وتفيض عليها ببسماتها وكأن في نفس (ميمونة) حاجة ومرادا.

وجال (مالك) بأفكاره بعيدا وأخذ يفكر طويلا، وما شدّ انتباهه وملك عليه تفكيره إلاّ هذا الصديق المخلص الأبيّ، الكريم الوفيّ، الذي لم تُنسِه صوارف الأيام ونوائب الدهر ما كان بينهما من عشرة وصداقة ووئام فيما خلا من الأعوام، فكم من صديق فارقتَه فنسى، وكم من خليل باع المودة وقسا، ولله ذر الشاعر إذ يقول:

أعدى العداة صديق في الرخاء فإن طلبته في أوان الضيق لم تجد

وأوثق العهـد ما بين الصحاب لمن عاقـدت قـلبا بـقلـب لا يدا بيـد

وتحركت في نفسه مشاعر عذبة قد تفجّرت كالسلسبيل، وكأن هذا الفؤاد الذي بين أضلاعه أصبح جدولا من المحبة والسعادة والهناء سالت ينابيعه، فاستحسن هذا الحلم الذي يراه وما شعر إلاّ و(ياسين) يضرب على عاتقه ويقول:

" أين سرحت يا (مالك) "، فأجابه:" أنا معك، أين أنت؟ وما هذا الغياب الذي طال؟ وما هي أخبارك؟ "

(ياسين):" الحمد لله، فبعد تخرجنا من الجامعة اضطررت إلى الذهاب لأداء الواجب الوطني، وبعد ذلك بسنتين تقدّمتُ لمسابقة التوظيف في التعليم الثانوي كأستاذ الأدب العربي فنجحت، وبعد ما عملت لمدة سنة خطبت ابنة خالي، ولكنني لم أتزوج بعد وهذا حتى يتزوّج أخي الأكبر، وهي فرصة كذلك لأهيّئ نفسي وأُكوِّن حياتي وأَكون قادرا على تحمّل تبعات الزواج ".

إقتضت سنّة الله تعالى الباقية في الكون أن يوجد نظام التباين والتفاضل بين البشر، فالشر نقيض الخير، والقبح نقيض الحسن، والفقر نقيض الغنى، وهكذا يسير هذا النظام ليعلم الإنس والجن أن التفاضل سنة كونية أوجدها الله تعالى لحكمة أساسها: إنما الحياة الدنيا دار بلاء وامتحان، وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور.

# - ١٥-

قد يتكدّر عيش الإنسان بالبلاء مهما كان ذلك البلاء، سواء أكان مرضا أو فقرا أوفقدان حبيب أو كساد تجارة أو إخفاق في امتحان أو غيرها من البلاء، ومهما كان صبر تحمّل ذلك الذي أصيب به، فالمرض إذا حلّ بالعبد وطال ونفدت عليه حيل الصبر قد يقنط من شفائه وقد يتسخّط على قدر الله تعالى، ولكن عليه أن يقوى في وجهه مصطبرا محتسبا، مسترجعا حامدا، ذلك أن التّبر لا يصفو ولا تجلو نصاعته إلاّ إذا مرّ على النار لتذهب عنه الشوائب.

وهذا الفقر الذي كلما حل بقوم اصطحب الكفر معه، فإذا أصاب العبد وطال به قد ييأس من الصبر عليه لما يراه من قسوة الظروف، فإن كان الفقير أعزب فهو لا يستطيع أن يكوّن بيتا ولا أن يؤسس أسرة لأن تكاليف الزواج مرهقة، حينها يرى أيّ السبيلين ينهج طريقان شتّى مستقيم وأعوج، وإن كان الفقير ربّ أسرة ذا عيال فأمره إلى العسرى أقرب، فهو لا يستطيع تحمّل تكاليف الملبس والمشرب والمسكن والدراسة لأولاده، فهذا يمرض وهذا يحتاج إلى سروال أو حذاء وغيرها من الحاجات، ثمّ يا ويله إذا ما حلّت مناسبة كالعيدين أو الدخول الإجتماعي أو غيرها، ثمّ إنّ صنوف البلاء كثيرة متعددة وليست العاقبة الحسنة إلاّ لمن صابر وصبر واحتسب.

ماذا على الناس لو عاشوا في مجتمع متراحم يروْنه كالأسرة الواحدة!؟، لا يحقد فيه الفقير على الغني، لأنّه يراه مترَف مسرِف يتقلّب في ظلال النعيم والتبذير وهو لا يجد ما يسدّ به رمقه من معشار ما يرميه من أطايب الطعام، ولا يحتقر فيه الغنيُّ الفقيرَ فيحرمه حقّه من الزكاة والصدقات، ولماذا يجوع الفقير وجاره يرمي ما لذّ من الطعام وطاب؟، ولماذا لا يدرس أبناء الفقراء وأبناء الأثرياء يتخوّضون في مال الله بغير حقّ؟، لماذا يمرض الفقير حتّى يموت وربّما لو أسعفه الغني بأعباء عملية جراحية أو بدواء باهض الثمن لعاش حينا من الدهر ولعال نفسه وأسرته؟، لماذا يتعذّب آلاف الشباب بنيران البطالة وفراغ الأوقات فيملؤها بعضهم بنيران أشدّ أوارا وشرارا على نفسه وعلى المجتمع، فمنهم من يتعاطى المخدرات والمسكرات، ومنهم من يرتكب الفواحش والسرقة والإعتداء على الناس، ومنهم من ينتحر.

وأما بعضهم الآخر فهو صابر يتكبّد آلام البطالة والعزوبة ونظرات الناس التي تلتهب احتقارا وتقطر استصغارا للمستضعفين المحرومين من الفقراء، وتولّي عنهم الطّرْف لأنهم منبوذون في نظرهم لا قيمة لهم في المجتمع، وقد راجت في أوساط الناس اليوم وسادت لغة الدرهم والدينار.

ألا فليعلم هؤلاء بأن قلوبهم قد جفّت من معين الأخوّة، وحُفّت بأشواك الأنانية وحبّ الدنيا، وأقفرت عيونهم من دموع الرحمة، وتحجّرت عقولهم إلاّ من التفكير في جمع الحطام الفاني والمتاع الزائل، وخلت أرواحهم إلاّ من عبادة البطون والفروج والدرهم والدينار.

وكن كما قال الشاعر:

واصبر على نكد الدنيا وكن بطــلا يلقى السيوف غداة الحرب بالدَّرق

إن كنت قد ضقْت ذرعا عن نوائبها فـلا تخـف إنّ لطـف الله لـم يـضق

# - ١٦-

بين أزقة القرية الموحلة، تنبعث روائح البؤس والحزن، وفي أفناء بيوتها الضيقة يتطاير شرر الكآبة التي تختلط بالمرارة، الرعد يدوّي الأرجاء والبرق يلمع حينا بعد حين كأنه الأشباح، والرياح تعصف والأمطار تتهاطل، والطبيعة بين هذا وذاك في منظر مهيب رهيب.

سكنت الكائنات الحية من بني البشر والحيوان والنبات، وأعلنت سباتها في ليل الشتاء الغضوب، وأفسحت المجال للطبيعة تؤدي دورها في مسرح هو إلى مملكة الأساطير قريب، أجواء مكفهرّة ذوات عبوس وتقطيب، أصوات ذوات دويّ وأصداء تقرع الآذان، وألوان ذوات شحوب وقطوب، وبرد قارص يلفح الوجوه ويلسع الأبدان.

أرأيت إلى هذه الأشجار الحزينة التي نفضت أوراقها وتعرّت أغصانها كما تقصّ الحسناء شعرها حزنا على فراق زوجها، أم هل رأيت إلى تلك الأزهار التي غيّبتها الأوحال، أم إلى المروج التي ذبلت واصفرّت فنسفتها الرياح، أم هل رأيت إلى تلك الغيوم الرمادية القاتمة التي أذهبت لون السماء الأزرق الجميل وحجبت الشمس بنورها وحرارتها، وهل رأيت إلى هذه الكائنات التي كانت تبهج الطبيعة وتبتهج بها كيف سكنت في اسطبلاتها أو عرائنها أو جحورها أو أوكارها.

ويأتي على الطبيعة الربيع البديع، فتبتهج وتفرح، وتشدو وتغنّي وتمرح، وتتزيّن بالجميل من الأزهار والورود، البديعة الألوان، الشّذيّة العطور، الكثيرة الأشكال، تتوزّع في شكل جذّاب، وتنسيق خلاّب على صفحة السّهل ما بين الحشائش الخضراء والسواقي الجارية، جنان خلاّبة تزرع في النفس السرور والراحة والإطمئنان، وتبعد عنها ما قد يحلّ بها من الهموم والكلوم والأحزان، أجواء كأنّما هي الأعراس قائمة والأفراح عارمة، فوّاحة، صاخبة، تغريد للعصافير وثغاء للأغنام وخرير للسواقي، وعطور للزهور تتضوّع مع النسمات الرقيقة العليلة.

يا أيتها النّفوس...

إنّما أنت كالطبيعة يشتو عليك الشتاء، تحزنين فيتلبّد جوّك بضباب الحزن والكآبة، وتعصر قلبك عواصف اليأس والقنوط، وتجتثّ ورودك رياح القلق والرعب، وتسودّ أجواؤك بغيوم الخوف والألم، تحزنين إن غاب عنك حبيب، أو حلّ بساحتك المرض، أو ألمّت بك المصيبة، أو فاتك من الدنيا عرض وشهوة، أو منصب أوجاه، أو حلّ بك الفقر والإخفاق.

يا أيتها النفوس...

إنّما أنت كالطبيعة يحلّ بك الربيع كذلك كما حلّ بك الشتاء، تفرحين فتطلّ شمس الأمل على حياتك، ويبتهج قلبك بنسيم السعادة والأفراح، وتتزيّنين بورود البهجة والسرور، وتنبت في أرضك أزهار الخير والأمان، وتضيء جوّك شمس النّجاح وأنوار الحنين.

تسعدين إن حلّ بأرضك روْح السعادة وريحان الأصدقاء والأحباب، تفرحين ويعتليك الغرور إن تمكّنْتِ من عنفوان الشباب وقوّة السلطان ووجاهة المنصب، تسعدين إن حقّقْت النجاح وحلّ بأرضك ربيع الثروة وروضة المال الحلو الخَضِر وبزغ في سمائك نجم الهناء وأطلّت شمس الصحة وأنار قمر الأمان.

ألا يا ربيع النفوس أشرق بشمسك فإن البشر من شتاء الحزن واليأس والآلام في كبد وضنك وتسهيد.

# -١٧-

توالت الأيام العجاف على الأم المسكينة وهي تكابد مرارة المرض من جهة، ومرارة رؤية أسرتها لا تجد عائلا يعولها، وكان (علي) وأبناؤهما يتعهّدونها باللطف والرعاية وهم يترقّبون كل يوم زائرا من القدر يفجؤهم بالمصير الذي لا مناص من الهروب منه، ويفجعهم في العزيز الذي لا غنى عنه.

وكانت الأم (زينب) ترى على وجوههم من البسمة المصطنعة والحنان المشبوب بالحسرة خوف الفراق ظنا منهم أنها لا تعلم بحالهم وهو ما أخفته بواطنهم ولكن ظواهرهم الحزينة المكسورة لم تكن تستطيع أن تخدع ما تراه العين، والأم تعلم أن نظراتهم تلك لا تفتأ تفارق مرآها حتى تعود إلى ما كانت عليه من الحزن والعبوس والتقطيب والبكاء.

ويا ألمي ويا حسرتي على ابنيها الصغيرين الغريرين اللّذين لا يبرحان سريرها كأنّهما أحسّا - على الرغم من صغر سنهما - بأنهما إنما يودّعان جبلا شامخا من العطف والحنان، وصرحا عظيما من الرحمة والأمان، وهما دائما يسألانها عن اليوم الذي ستعود فيه إلى عافيتها، ولكنّها تبوء بالحسرة وتبادر إلى البكاء وما هو إلاّ ديدن الذين انتهت بهم السبل إلى باب موصد، فيمسحان دموعها بيديهما الصغيرتين ويبادرانها بالبكاء كما فعلت ما شاء الله أن يبكيا.

الحياة هكذا... ألم وحسرة، مضرة ومسرة، فقدان وإيجاد، فراق ولقاء...

# -١٨-

الجوّ في الخارج مكفهرّ مطير، والريح تصفّر كأنك تسكن مأوى للأساطير.

إنّه منتصف شهر يناير، سقطت أوراق الأشجار واكفهرّت الأجواء، وذبلت الحشائش والأزهار، بل لقد غيّبتها الأوحال، ولن تبرز إلاّ بعد حلول فصل الربيع، ففلذات أكبادها من البذور في بطن الأرض تتغذى من الماء ولن يحين مخاضها إلا بعد حين، كل شئ حزين، حتى العصافير استقرت في أعشاشها تحضن بيوضها لتستقبل فصل الربيع ببهجة وسرور وحنين، وحتى الأشجار فقد أعلنت سباتها بعد أن نفضت عنها أوراقها من أغصانها، كما تقص الحسناء شعرها حزنا على فراق زوجها حدادا لا يطول حتى تعود إلى حسنها بعد عودة الربيع، وتتزيّن صفحة الأرض بشتى الألوان من الحشيش والأزهار لتبسط بساطها المزركش بالبديع من الألوان.

اليوم هو يوم الخامس عشر من شهر يناير، الجو في الخارج شديد البرودة، شاحب المنظر، غزير المطر، وهو ما أقعد (عليا) عن الخروج إلى الحقل، لأن العمل في يوم شديد القسوة كهذا لا يطاق، إلا أن (مالكا) ذهب إلى الحقل ليتفقّد حال مواشيه على عجل، فيقدّم لها طعامها من الكلإ، ويملأ أحواض الماء داخل الإسطبل ويعود إلى الدار سريعا.

كان (علي) وولداه الصغيران متحلّقان حول نار الكانون، الذي لا يلبث أن تخمد ناره حتى يضيف إليها أعوادا فتعود إلى الإشتعال ويعمّ البيت دخان يتصاعد حتى تدمع عيونهم وتختنق أنفاسهم وتفوح ثيابهم برائحة الدخان المتصاعد ثم تعود الأجواء إلى الهدوء بعد أن أزعجهم ذلك الدّخان الخانق.

كان (علي) يقصّ على ولديه الصّغيرين قصصا كانت جدّته تقصصها عليه، وهما مصغيان إليه كأن على رأسيهما الطير، وأمهما مستلقية على فراشها في الغرفة المقابلة لأنها لا تستطيع الحركة، وكانا ينصتان إليه بشغف واهتمام كبيرين فيلتهمان كل ما يمر عليهما من أحداث، ويستوقفانه ويستفسرانه إن خيّم عليهما الغموض، فإن تخلّل كلامه موقف محزن أو مخيف قطّبا جبينهما ودَنَيا منه، وإن مرّ عليهما موقف مفرح رأيت أساريرهما قد بدت على وجهيهما، وكانا كذلك يعيشان معه القصّة حتى أنهاها، فألحّا عليه أن يقصّ عليهما قصة أخرى ولكنه وعدهما بها في يوم آخر، وأخذ كل واحد يسبح في عالم الخيال بعد أن أتمّها.

# -١٩-

نهض (علي) من مكانه وترك ولديْه حول الكانون المشتعل متجها صوب الغرفة التي تنام بها زوجته ليطمئنّ على أحوالها، فإذا بها مضطجعة على شقها الأيمن، دنا منها، جلس على السرير وأطلّ على وجهها، ووضع يده على كتفها لعلها تكون نائمة فتستفيق، حرّكها قليلا فلم يسمع منها صوتا ولا أحسّ منها بحركة، إرتاب في أمرها فأعاد تحريكها، ولكن انقلب إليه أمله خاسئا وهو حسير بعد أن أيقن بأن الأمانة عند بارئها، وأنّ من أمامه إنّما هي جثة هامدة.

وضع (علي) مرفقه على كتفها ونصب ذراعه، وأمسك رأسه بيديه، وأطرق هنيهة في زفرات وحسرات وأنّات محرقة ملتهبة، وعبراته تنهمر على خدّيه انهمار المطر في الخارج، وقلبه يلتهب حزنا ولوعة التهاب النار في الكانون.

قام (علي) بعد أن بردت تلك الحرقة التي في صدره، وغطّى التي كانت زوجته وأمّ أولاده وهو يحوقل ويقول:" إنّا لله وإنّا إليه راجعون".

رجع (مالك) إلى البيت مبلول الثياب، وكان من عادته إذا دخل البيت أن يتفقّد أمه، فربّما احتاجت إلى معونة أو إلى طعام أو شراب أو إلى أنس، ولكن هاله أن رأى أمّه ممدّدة على سريرها، وهي مغطّاة من رأسها إلى قدميها، ورأى أباه مطرق الرأس ماسك إيّاه بيديه.

خيّم سكون الحزن وسكوت الظلام على الدّار، فاعتلى صوت الريح والمطر كأنّه يعزّي أهله، فعلم (مالك) أن الأمانة عند أهلها، وأن ما كان متوقّعا قد حان، وما أخفته الأيام عن مصير الأم قد بان، وأنشد قول الشاعر:

ذهب الحبيب فيا حشاشة ذوبي أسفا عليـه ويا دمـوع أجيبي

إنّي وقفـت على جوانـب قبـره أسقي ثـراه بدمعي المصبوب

لك يا ضريـح كـرامة ومحبـة عندي، لأنك قد حويْت حبيبي

# -٢٠-

لقد صدق الشاعر حين قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيّب الأعراق

فالمرأة مدرسة يتربى فيها العظماء، وسكن يسكن إليه الرجال، وملاذ يلوذون إليه إذا ما عضّهم الزمان ووقفت في وجوههم الأهوال، هي لباس يستر عوراتي، وبيت يؤمّن روعاتي، وحصن يصد عني من الأهوال ما يأتي، هي سري وموضع أسراري، هي بحري وكنوز أغواري، هي سقفي وأسواري، هي سندي ويدي وعماد داري.

إني أرى فيك أيتها المرأة صرحا شامخا، وجبلا شاهقا، فأنت أمي أو أختي أوزوجتي، أنت التي تربين وتسهرين وتتعبين، وتعينين على نوائب الدهر، وأكرم بها من تيجان تكلِّلين بها رأسك، بك تصبح الحياة لها أهداف ومعان، أنت سر الحياة، وقارب النجاة، أرى بك الجمال في الوجود، وبك يتجدّد الأمل في نفسي، الكوخ بك قصر والظلام بك بدر والليل بك فجر، وبك أحوز كل الفخر، أنت الربيع إذا ما أقفرت أرض، والبلسم إذا ما حلّ بي مرض.

يا أيها النبع الصافي في حياة الرجال، لقد أصبحت الدنيا كالغاب يأكل المرء لحم أخيه، فهلاّ رقّقت قلوبهم وسقيتهم من نبعك الصافي، أنت بستان في حياة الرجال، فهلاّ منحتهم من ورود الفضيلة ما يذهب عنهم أشواك الرذيلة، إنّما وراء كل رجل عظيم امرأة، فابذري فيهم ما يصلح أحوالهم ويحيي روح الأخلاق في قلوبهم حتى يشبّوا عظماء، لا يرضوْن بالدون من الأخلاق، بل تهفو نفوسهم إلى أعلى الطباق، حتى يقوم مجد الأمة على قدم وساق.

لا نريد منك الصعود إلى المريخ، أو صناعة الصواريخ، لا ولا الدخول من الباب الواسع إلى التاريخ، بل نريد منك جيلا بالعلم يبدأ، وعلى الدين والأخلاق ينشأ، وفي ظلال الفضيلة يتفيّأ، حينها يكون عندنا من الأبناء رجال يصنعون الصواريخ، ويصعدون إلى المريخ، فيكون حريا بهم لعلمهم وفضلهم أن ندخل وإياهم إلى التاريخ.

# -٢١-

الأمطار تتساقط في الخارج بغزارة، والجو مكفهر محزون، مرعد السماء يبعث في النفس الشجون، لا ترى إلا نورا خافتا ووجها كئيبا باهتا كما ترى الكآبة والشّحوب على وجه الرّجل المريض، وإنه من عادتي إذا أصبحت على صباح كهذا فإن ذلك يؤثر على نفسيّتي بالكآبة كما يؤثر المنظر الجميل أو الوجه الصبوح أواليوم المشمس على نفسيتي بالمرح والسعادة، وإن النفوس لتشتو ويعتريها الخريف كما تشتو الطبيعة ويعتريها الخريف كذلك، فتتساقط أوراق الأشجار وتختفي عروس النور فتخبو حرارتها ويخفت نورها وراء السحاب، كما يخبو الفرح والسرور خلف غمام اليأس والأحزان.

أعددت عدّة هذا اليوم البارد المطير، فلبست من اللباس أوقاه من البرد والمطر، وأكلت من الطعام ما يقي جسمي مغبّة الإحساس بالجوع والوهن، واستأذنت أبي، ثم ذهبت إلى الحقل لأن العمل في هذا اليوم البارد يشق على أبي، ثم إن الأمر لا يعدو أن أتفقد الماشية وأقدم لها من الكلإ والعلف والماء، وأنظف الإسطبل على عجل ثم أعود إلى البيت، ذلك أن العمل في هذا اليوم القاسي خارج الحقل شاق ومضن.

ذهبت إلى الحقل وأتممت العمل خلال ساعة من الزمن، ثم عدت إلى البيت، وأنا على موعد للبحث عن المكان الذي يقيم فيه العم (صالح)، وكان لي أمل كبير في العثور عليه واسترجاع ما مضى من الأيام.

لقد تعلقت كثيرا بهذا الرجل المسكين، الذي أنهكه المرض وأضناه الألم، وأرهقه شئ آخر لا أعلمه لأنه جعله أسيرا في سريرته.

لبست ثياب الخروج بعد أن ألقيت عني ثياب العمل وقد نال منها الوسخ والبلل، ونظفت حالتي واستأذنت أبي فقال:" إلى أين يا (مالك) في هذا اليوم المطير، لعلك تكون على موعد مهم أو لقضاء حاجة مستعجلة؟!".

" ليس الأمر كذلك يا أبي، إنما أريد زيارة أحد المرضى وتفقد أحواله، فإنه في مغيب طويل، وكما قلت لك من ذي قبل فإنه منذ أن غادر المستشفى لم أره وقد عثرت على عنوانه ولم أعثر على مكانه بعد، ولي أمل كبير في العثور عليه إن شاء الله تعالى ".

" وهل تقصد بذلك المريض عمك (صالح)؟!"

" نعم يا أبي إنه هو "

" بارك الله فيك يا ولدي، فإن خير الناس أنفعهم للناس، وإن عيادة المريض لها الأجر الكبير، وقد حرّم الله النار على كل هيّن ليّن قريب من الناس".

ودّعت أبي وحملت مطّاريتي وخرجت من البيت وقد لسّعتني أنياب هذا البرد القارص، رغم أنني ألبس من الثياب أثقلها علني أستطيع أن أصد عني قسوة هذا الوحش الضاري، وحش البرد المكشّر الغضوب.

مشيت متئدا في أزقة القرية الموحلة، وركبت الحافلة متجها نحو المدينة وأنا أرقب فجر ذلك الموعد لعل شمسه تأذن بالطلوع.

حينما ركبت الحافلة بدأت أفكر في حادثة قصتها علي أمي يوما ما، حينما كانت تتحدث عن أخيها (منصور)، ذلك الأخ الذي لم تره منذ وقت طويل، حينما ذهب للعمل في المهجر ولم يعد، بل لم يظهر عليه أيّ خبر منذ اللحظة التي فارق فيها عائلته.

أمي المسكينة - رحمها الله تعالى -، فارقت الدنيا بعدما فارقت أخاها، وكانت من فراقه في حزن كلما ذكرته حتى اللحظة التي فارقت فيها الحياة، وليست تدري هل سبقها إلى القبر ولحقت به فربما أنِسَت به هناك وخفّف عنها بعض ما عانته من فراق الشقيق، أم أنها ماتت وفي قلبها ما تزال تلك الحرقة متأجّجة ذات لهيب لأن أخاها لا يزال على قيد الحياة**؟**.

أمي المسكينة - رحمها الله تعالى -، كانت تدعو دائما لأخيها دعوة صالحة عسى الله أن يرحمه ويغفر له إن مات، أو يهديه ويصلح من شأنه إن كان حيا، سألتها يوما عندما كانت على قيد الحياة:

" أراك كثيرة الدعاء لأخيك، كثيرة الإشفاق عليه، كثيرة الإشتياق إليه !"، فأجابت:

" وكيف لا أشتاق إليه، ونار الشوق إلى رؤيته لا تزال تحرق فؤادي.

كان أخي هذا ثاني اثنين، إذ لم يكن لأبي سوانا، تزوّجتُ بأبيك وتركت أخي (منصور) مع أمي وأبي، وكان حينها صاحب الثامنة عشر من العمر، وبعد سنتين توفّيت والدتي وبقي أبي مع أخي (منصور) لوحدهما في البيت، وكان والدي كبير السن، كثير المرض، بطئ الحركة، وأنت تعرف يا ولدي حال من كبرت سنّه.

جاء إلى بيتي وكنت حينها متزوّجة بأبيك، وفي الحقيقة فهو الذي أشار عليّ باستقبال جدّك في بيتنا، قال لي يوما:" أبوكِ اليوم ليس له مأوى يأوي إليه بعد وفاة الوالدة - رحمها الله-، خاصّة وأنّه مريض وليس لديه مَن يقوم على شؤونه، ولا بأس أن يقيم عندنا بقيّة أيّام عمره، ولسنا ندري من يسبق إلى القبر أنحن أم هو، والأعمار بيد الله تعالى ".

أتى أبي إلى بيتنا على مَضَض، ولست أدري لماذا كان يستثقل نفسه على الرغم من أنّنا لم نُدِر له ظهرا، وما سمع منّا هجرا، ولكنّ أبي أعرفه لا يحبّ أن يكون عالة على أحد.

لقد فارقت أمي الحياة وهو في أمس الحاجة إلى من يرعاه ويقوم على شؤونه، لذلك كان من أوكد الواجبات على أخي تجاه والدي أن يتزوّج للقيام على شؤون البيت ثم ليدرأ عن نفسه كذلك مشقة العيش أعزب، فالزوجة لا مناص من وجودها في البيت إذ هي عماده، فلا يقوم بيت إلا بها، وهي طمأنينته فلا يستقر عيش إلا بها، وهي أسواره فلا يتحقق أمن إلا بوجودها، هذا إن صلحت، وعلى الإجمال فإن أردت أن تستقر حياتك وتنعم بالسعادة فاظفر بذات الدين تربت يداك.

لم يكن أخي هذا لسوء الحظّ بارا بوالديه، وأقولها لك صراحة يا بني، فكم أتعبهما في حال صغره ثم في حال كبره أيضا، ذلك أن الشجيرة يصلح معها التقويم إن كانت غضّة طرية، وأما إن اشتدّ عودها واستغلظت واستوت على سوقها صار تقويمها من الصعوبة بمكان.

لقد ولد أخي هذا بعدي بسبع سنين بعد أن نال من والديّ اليأس من إنجاب الولد، ثم أتى (منصور) على حين غفلة من الزمن، فسعدا به سعادة الضرير يرتد إليه بصره أو سعادة الظمآن في الأرض الفلاة وقد ضاعت منه الراحلة تحمل الزاد والماء وإذا به يعثر عليها.

لقد كان أبي وأمي - رحمة الله تعالى عليهما - يريانه الخلف الذي يخلّد ذكرهما بعد موتهما، ونجلهما الذي يتربع على عرش مملكتهما بعد وفاتهما، ويريان في أخي (منصور) عقبهما الذي يحمل لواء مجدهما، ويكون لهما من الصدقات الجارية بعد أن ينقطع عملهما بانقطاع أجلهما.

لا أنكر أن والدَيّ نشآ منشأ طيبا في بيت محافظ وجوّ تسود فيه الأخلاق، ولكن حبهما المفرط له، واشتياق والدَيّ إلى الولد بعد طول الغياب، وكونه ولدا ذكرا، كل ذلك كان سببا في الإهتمام به أكثر وتدليله أكثر مما تسبب في فساد طبعه.

كانا يفضّلانه عليّ - رحمة الله تعالى عليهما -، ويؤْثران على نفسهما كل شيء لذّ وطاب صغيرا كان أو كبيرا فهو خالص له، وليس معنى ذلك أن أبواي كانا يكرهاني، ولكن نفسهما التي جبلت على حبّه كانت تقر به أكثر ممّا تقرّ بي، ويهتمان به أكثر مما يهتمان بي، وتلك جِبِلة في النفوس مغروسة، فإذا دخل أبي:" أين (منصور)؟"، " هل نام (منصور)؟"، " خذ الحلوى يا (منصور)؟"، " تعال آخذك في نزهة يا (منصور)؟"...

ولم يعلما أنهما بفعلهما ذلك إنما يعلمانه الأنانية وحب النفس، ويعلمانه التواكل والتكاسل، ويغرسان في نفسه سوء الطباع وهو غض طري، ويبذران في قلبه سيء السلوك وهو أرض خصبة في بدء غرسها تنبت الصالح من النبات وعديم الفائدة.

أرأيت إلى الطبيب حين يصف الدواء المرّ لمريضه أو حين يحقنه حقنة، فهل أراد بذلك أن يضيف إلى مرارة الألم مرارة الدواء أو وخز الإبر؟، أم تراه يريد بالدواء المرّ أن يذهب مرارة الداء.

أرأيت إلى الطبيب حين يقرر بتر عضو أصابه مرض خبيث، أتظنّ أنه يريد بذلك الفعل أن يعيق المريض أو أن يذيقه من الآلام ما لا جريرة من ورائه؟، أم أنه يريد أن يرحمه، فإن ذهب عضو سلمت أعضاء، وبقيت الحياة، وأن الهلكة في ترك العضو المصاب.

إنكم يا معاشر الآباء كالأطبّاء، فعليكم أن تكونوا حكماء في تربية أبنائكم، وتطبيب ما فسد من أخلاقهم وخبُث من طباعهم، فإن الدواء لهم هو تربيتهم على الأخلاق والتقويم على المبادئ والسهر على ذلك والتعب في سبيله، وإن تطلب الأمر الزجر والتوبيخ أو حتى الضرب الرفيق غير المبرح فهو ذلك الدواء المر الذي يقدمه الطبيب للعليل رأفة به، ورحمة على حياته من الهلاك، وأما من خاف على ولده من الدواء المر أو ظن أنه يرحمه بفعله ذلك فإن مصيرهما إلى الهلاك جميعا، ففي الصلاة مثلا ورد الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم:" علموا أبنائكم الصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر...".

لقد شبّ أخي على سيّئ الطباع، فكان يضربني ويستأثر بكل ما وقع في يديّ أوأيدي والديّ برضاي أو عن غير رضا مني، وكان نتاج هذا الدّلال أنّه لم يكمل دراسته وأنّى له ذلك وقد أطلق له أبواي الحبل على الغارب ظنا منهما أن تلك الحرية التي يبسطان له فيها، وذلك اللين الذي يتعاملان به معه إنما هو رحمة وشفقة عليه وحُبّا فيه، ولكنهما أخطآ من حيث لم يشعرا، فلو قاما على تربيته صغيرا وسهرا على ذلك لما تعنّت كبيرا.

أيها الآباء لا تظنوا بأنني أعلن الحرب على فلذات أكبادنا، ولكن إذا داريناهم اليوم فلن يستطيعوا مواجهة العدو غدا، والأعداء في زماننا كثير؛ فعدو الجهل لا بد له من سلاح العلم، وعدو الرذيلة لا بد له من سلاح الأخلاق، وعدو الغزو الإعلامي والفكري والثقافي لا بد له من سلاح الدراية بما يحاك ضد المسلمين من مكائد وتغريب واستشراق، والصبر سلاح المصائب والمصاعب،...

وبينما أنا في غمرة تلك الذكرى فإذا ببائع التذاكر يقابلنا بوجهه يقول بصوت جهوري:" لقد انتهت الرحلة، سنصل إلى المحطة بعد لحظة"، فأوثقت أزرار معطفي حتى أقي نفسي قسوة الجو وشددت همتي وحملت مطريتي استعدادا للنزول.

# -٢٢-

... وصلت إلى المدينة وكانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف صباحا، وأنا الآن أسير في شوارعها، الجو مطير، والبرد اللاسع يلفح الوجوه، الناس في حركة دائبة ونشاط، فكل واحد إلى شأنه من عمل أو دراسة، ومهما كانت حرارة الجو أوبرودته فإن أهل المدينة في حركة ونشاط.

تسارعت الخطى في حياة هؤلاء الناس وكأنهم يسابقون الزمن، في حين ترى أن أهل القرى في راحة من شأنهم ودعة، يحاول هؤلاء مسايرة الركب - كما يزعمون -، وقد تفتّقت مواهب الأذكياء من المخترعين، ورغم أن هذه الإبتكارات على كثرتها نفعت الناس أيّما نفع، فتقلّصت المسافات وارتاح الناس في أسفارهم التي كانوا يضربون في سبيلها أكباد الإبل، وتقدم الطب فأصبحت كثير من الأمراض في خبر كان، إلا أن هذه الحضارة لا تخلو من نقائص، فجاءت باختراع يقال له السيارة، فأصبح الواحد لا يلتقي بجاره أو صديقه أو أخيه إلا حينما يلوح له بيده من بعيد وهو راكب سيارته، تحية جعلت من علاقاتنا باردة جافة لا حرارة فيها ولا حياة، ونالت حوادث المرور حصّتها من أرواح البشر، وجاء اختراع يقال له الهاتف النقال فأصبحت ترى الناس في الشارع تحسب أحدهم كالمجنون يحدث نفسه واضعا يده على أذنه، ثمّ هذه النافذة التي تطل على العالم بالأخبار والبرامج المختلفة التي يسمونها التلفاز، إذ أصبح شمل العائلة لا يلتئم إلا وهم ينظرون إلى هذا الصندوق العجيب وهو يضخّّ عليهم من البرامج ما صلح منها وما خبث، فلا يتحدثون ولا يتشاورون ولا يتناصحون، فأصبح الواحد منا لا يرى أباه وأخاه وولده وزوجته، وهم حاضرون غائبون، وقد كان الناس في وقت مضى يجتمعون في آخر النهار فيتدارسون ما ينفعهم أو يتشاورون فيما يصلحهم أو يتناصحون فيما يهمّهم فالدين النصيحة، فإن لم ينتفعوا بهذا أو ذاك فحسبهم من ذلك أن تتآلف قلوبهم وتتعانق أرواحهم وتعمّ بينهم المودة وتغشيهم الرحمة وتحيط بهم السكينة وهم يتبادلون أطراف الحديث ويتفكّهون فيما بينهم، فساعة وساعة، وينظرون إلى وجوه بعضهم البعض، وابتسامتك في وجه أخيك صدقة.

أرهقني هذا الجوّ القاسي، وقد تزايد تهاطل المطر وصفير الرياح، وقرّرت أن أعود إلى الدّار وأجّلت الذهاب إلى المستشفى في يوم آخر وقد أدركني الوقت، حتى لا أضطرّ إلى المبيت في الخلاء.

# -٢٣-

حمل (أحمد) محفظته المتواضعة وهمّ بالخروج، ولكنّ أباه ناداه قائلا:" يا (مالك) هل أنت ذاهب إلى التدريس؟ "

(مالك):" نعم يا أبي، هل تريد خدمة مني؟ "

(علي):" لا يا بنيّ، اذهب رعاك الله ووفّقك، واعلم أن الله لن يضيع أجرك "

(مالك):" دعواتك بالخير لي يا أبي "

(علي):" احرص على أن تكون سمحا رحيما مع تلاميذك، فنحن الشيوخ لسنا مثلكم أنتم الشباب "

إبتسم (مالك) لكلام أبيه ومضى وهو يفكّر فيما قاله له، وكأنّه يضمر في نفسه شيئا ما.

ولقد تعلّم من تجربته في تعليم كبار السن ومحو الأمية أن هذه الفئة من المتمدرسين فئة خاصة، ذلك أنهم تعترضهم الكثير من العوائق كضعف البصر والسمع، ونقصان التركيز وأن أفهامهم بطيئة الإستيعاب لأن الذاكرة تضعف بفعل تقدّم الأعمار من جهة، وكذلك بسبب عدم تمرينها على التفكير والقراءة والتحليل والإستنباط من جهة أخرى، كما أن كبير السن بطئ الحفظ سريع النسيان، فلا تكاد تعلّمه حرفا بحركاته وصوائته وصوامته، وتنتقل به إلى الحرف الآخر حتى ينسى الحرف الذي تعلّمه من قبل، كما أن لهم كذلك صعوبة في النطق السليم للحروف، وقد يكونوا في غالبيّتهم مرضى ببعض الأمراض كالضغط الدموي أو السكري، ثم إن هذه الفئة تتأثر كثيرا بالنقد أو الزجر أو التوبيخ لأنهم يروْن أنفسهم كبارا ولا يجرؤ أحد مهما كان أن يفرض عليهم شيئا أو أن يلج عالمهم المحاط بأسوار من الكبرياء، وكذلك فإنهم يتغايرون ولهم حساسية فيما بينهم، فكل واحد يريد السبق والظفر بالإهتمام، وللعامل النفسي دور كبير في نجاح طالب العلم كبير السن، فلا يجوز توبيخه أو زجره أو إجباره على روتين أو نظام معيّن، أو إحراجه ببعض الملاحظات، بل يجب الحرص على تحفيزه وتشجيعه ومساعدته وإيقاد همّته وإيقاظ عزيمته، وإلاّ باءت العملية التعليمية بالفشل.

مضى عام درّست فيه كبار السن في صفوف محو الأمية متطوعا، وهذا هو العام الثاني، وإني أعتبر أن ما أقوم به رسالة إنسانية نبيلة، ومهمة اجتماعية ضرورية، وصدقة جارية أجد ثوابها وأجرها عند الله تعالى.

إن حاجة الإنسان إلى العلم كحاجته إلى الطعام والماء والهواء سواء بسواء، ذلك أن هذه مقومات للجسم وتلك من مقومات العقل والروح، وإن حاجتنا لتغذية العقل والروح لا تقل أهمية عن تغذية الجسم فحسب.

قصدت مدرسة القرية وقد دارت بفكري تلك الأفكار حتى التقيت بصديقي (عصام).

(مالك):" السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته "

(عصام):" وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته، أهلا بالأستاذ (مالك) كيف حالك وحال عائلتك؟ "

(مالك):" الحمد لله يا أخي، وأنت ما حالك وحال عائلتك والصغيرة (نوال)؟ "

(عصام):" كلنا بخير والحمد لله، والصغيرة كما عهدتها محبّة للإطّلاع، كثيرة الحركة، كثيرة المرح "

ثم لبث يسيرا وقال:" وكيف حال العمّ (علي)؟ "

(مالك):" في الحقيقة إن أبي بصحة وعافية والحمد لله، وما زال يعمل في الحقل ويرعى الأغنام من حين لآخر، إلاّ أن نشاطه قلّ، وأنا كما تعلم أعينه في الحقل كلّما تسنّى لي ذلك ولم أكن مشغولا، وقد يعيننا في ذلك أيضا أخي (أحمد) من حين لآخر "، ثم بدت على وجه صديقه (عصام) علامات العبوس وقال:

" وإلى متى وأنت تعمل في التدريس متطوعا بدون أجر، وترضى بالعمل في الحقل مع أبيك، وقد تعبت وسهرت وبذلت جهدك ووقتك في تحصيل العلم، ثم إن العمر يمضي، وأنت في عمر الزواج، ومسؤولية العائلة كبيرة، خاصة وأن أباك أصبح لا يقوى على العمل الشاقّ في الحقل وأن أمّك قد توفّيت رحمها الله تعالى، وأصبحتم في بيت بدون امرأة كأحدنا بدون يديْن "

نظر (مالك) إلى الأرض هنيهة وهو يهزّ رأسه، وكأنّه ما أعجبه حديث صديقه ثم قال:" أنا على علم بكل ذلك يا أخي، ولكن ما بيدي حول ولا حيلة، ألم تعلم أنّني ما تركت بابًا إلاّ طرقته ولا طريقا إلاّ قصدته، وهل تراني أرضى بالفقر وقد تقدّم بي العمر وأنا أعزب في وقت أنا وعائلتي في مسيس الحاجة إلى المرأة في البيت؟ "

فقال الصديق:" ربّما أكون قسوت عليك شيئا ما، ولكنّني أشفق عليك ولا أرضى بحالتك وحالة عائلتك هكذا وأنت صديقي "

" شكرا يا أخي سوف يكون خيرا إن شاء الله تعالى "

ودّعته وافترقنا، فقصدت المدرسة وذهب ذلك الصديق إلى سبيله.

# -٢٤-

نهضت مبكّرا هذا اليوم، وأنا على موعد كعادة كل يوم من أيام الخميس مع زيارتي إلى المستشفى، بعد أن غبت عن زيارة المرضى مدة قرابة الشهر، وقد اكتظّ وقتي ببعض الأمور العائلية الكثيرة، وكيف لا أعودهم وخاصة العم (صالح) وقد أصبحنا كالعائلة الواحدة، أشتاق إليهم ويشتاقون إليّ، وآنس بهم ويأنسون بي، أستمع إليهم وأصغي إلى همومهم وغمومهم، وربّما أستطيع أن أنفّس عنهم ولو بالكلمة الطيبة، وما عسى الأرض أن تفعل إذا ما اشتدّت تلك المعادن في بطنها واشتعلت واستعر لهيبها إلا أن تنفّس عمّا بداخلها من النيران إلا بالبركان.

قصدت المستشفى لأزور العمّ (صالح) وأخبره عن موعد الخطبة، وأنا في شوق كبير إلى سماعه كما أظنّه في شوق كبير كذلك للتفريج عمّا بداخله من الأحزان، وعمّا في قلبه من الهموم.

وصلت المستشفى فاستأذنت موظف مكتب الإستعلامات والإستقبال في الذهاب إلى الغرفة العاشرة حيث يقيم عمي (صالح) فهزّ الموظف رأسه ورأيته يقلّب سجلا كبيرا يسجلون فيه أسماء المرضى المقيمين والخارجين، وأرقام غرفهم ومعلومات أخرى تخصّهم، فاستغربت لأمره لماذا يفعل الموظّف ذلك وهو معتاد أن يراني دائم الزيارة للمريض المقيم في الغرفة العاشرة، فقلت له:

" أنا أريد زيارة المريض المقيم في الغرفة العاشرة ألم تعرفني؟ "

فقال الموظف:" بلى فأنا معتاد على رؤيتك، ولكنّك انقطعت مدة يسيرة من الزمن، وأريد التأكّد من أمر ما ".

أعاد الموظّف فحص الأسماء المدوّنة على السجل الكبير، ثم قال:" المريض المقيم في الغرفة العاشرة قد غادر المستشفى منذ ثلاثة أيام...".

فقاطعته قائلا:" أنظر يا أخي جيّدا وتأكّد إن كان هو الذي غادر المستشفى أم أنه تشابه في الأسماء فقط؟! ".

نظر الموظّف إلى (مالك) مرة أخرى نظرة ظهرت على وجهه أثناءها سَوْرَة الغضب وقال بلهجة حادّة:" نعم يا أخي إنه هو (منصور بن عبد الله)، فأنا أعرفهم واحدا واحدا، وأحفظ غرفهم وأتذكّر حتى زوّارهم إن كانوا يتردّدون على عيادتهم كثيرا، فهو الذي يقيم في تلك الغرفة وكنتَ تواظب على زيارته، إلا أنني لاحظت انقطاعك في الآونة الأخيرة، ولقد تماثل إلى الشفاء، فهو في حالة أحسن مما كان عليه من ذي قبل، فأذن له الطبيب بالخروج".

إبتسم (مالك) للموظّف وقال له:" ألم أقل لك بأنّ المريض الذي دللْتني عليه ليس هو الذي أبحث عنه، فالذي أقصد زيارته هو العم (صالح) "، فقال له الموظف:" يا أخي لا يوجد أحد يقيم في تلك الغرفة غير الشخص الذي ذكرته لك، ألا تفهم؟ ".

إستغربت لمّا ذكر لي الموظّف هذا الإسم وقلت في نفسي: سبحان الله! عجبا لهذا الرجل الغريب حتّى اسمه أخفاه عني، فلم أعثر على جواب اللغز الأول حتى أضاف له لغزا جديدا.

أو ربما يكون اسم (صالح) هذا اسم يكنّى به فقط، ثم استغرقت في التفكير محتارا وقد قرع ذلك الإسم مسمعي وكأنني سمعته من ذي قبل، أو أعرف شخصا بهذا الإسم.

هززت رأسي مستغربا متأسّفا لأنني اعتدت عليه واعتاد علي، وأنس بي أنس الوالد لولده وأنست به أنس الولد لأبيه، ثم غادرني من غير أن أودّعه أو أن أعرف المكان الذي يقيم فيه، ثم قلت للموظّف:

" وإلى أي وجهة توجّه؟ هل تعرف عنوان إقامته الآن؟ "، فتح الموظف دفّتي الدفتر مرّة أخرى، تصفّح أسماء المرضى الخارجين ثم قال:

" عنوان إقامته الذي توجّه إليه هو: شارع الحرية، رقم ١٧٦، المدينة الجديدة ".

" شكرا جزيلا يا أخي".

الموظف:" العفو، لا شكر على واجب".

خرجت من المستشفى أجرّ أذيال الحسرة حزنا على فراق العم (صالح) بل العمّ (منصور) الذي لم يسبقه إبلاغ ولا وداع، ولكن بقي لي من الآمال عرق ينبض، ولاح لي في الأفق منها بارقة من الأمل، وقلت في نفسي سوف أبحث عنه فإن بيني وبينه من المودة حبل، وبين قلبينا من الوداد وثاق، وإنني إن شاء الله لملاقيه، وإن فرّقت بيني وبينه الجبال.

سرت في شارع (الأمير عبد القادر) الطويل، وقد اكتظّ كعادة المدن الكبرى بالغادين والرّائحين، واختلطت فيه أصوات الناس بأصوات محركات السيارات وأبواقها، وضاقت نفسي بهذا الخليط المقلق من الفوضى والضجيج والدخان المتصاعد من محركات السيارات، وأنا الذي اعتدت العيش في جو القرية الصافي النقي إذ لا ضجيج ولا فوضى ولا غبار ولا دخان، وكانت قد ضاقت قبل ذلك أيضا بسبب عدم العثور على العم (منصور).

مشيت متثاقل الخطى قاصدا محطّة الحافلات لأرجع إلى البيت، عازما على الرجوع يوما آخر بحثا عنه لعلّني أجده.

# -٢٥-

انتظرت في محطة الحافلات برهة من الزمن حتى جاءت الحافلة التي تنقل إلى القرية، وقد نال مني التعب واليأس والحزن لأنّني لم أجد هذا الذي يدعى (منصورا).

ركبت الحافلة، فلما جلست في مكاني، ألقيت ببصري إلى الخارج وقد أعجبتني المناظر، وبدأت أفكّر ورجعت بخاطري إلى حيث كنت في المستشفى، وقابلت موظف الإستعلامات، وإذا بالإسم الذي ذكره لي يرنّ في أذني رنين الجرس الذي ينذر بشئ ما.

جلست في مكاني وجلس بجانبي كهل بانت على وجهه أمارات الحكمة والصلاح، وعليه سمت ووقار، وبقيت أفكر في ذلك الإسم الذي حيّرني، وأخذت أردّد في خاطري (منصور) وأبوه (إبراهيم)، ثم صحت متعجّبا وكأنّني عثرت على كنز مفقود أو لاقيت شيئا عجابا مما لا يألفه الناس قائلا بصوت مرتفع:" (منصور بن إبراهيم)، وأخيرا أكون قد عثرت على ما أبحث عنه، سبحان الله هل يكون هو يا ترى...؟! ".

نظر إليّ الراكب الذي بجانبي مبتسما مستغربا من أمري، فاحمرّ وجهي ولفّ الحياء رأسي وحوّلت ناظري إلى النّافذة محاولا إخفاء هذا الموقف الذي وقفت حياله، ثمّ نظرت إليه بطرف بصري فإذا به ينظر إليّ ويبتسم، فاستدرت إليه وابتسمت وقلت له:" مفارقات عجيبة وغريبة، ومفاجآت يطل بها علينا القدر يوما بعد يوم، وأسرار لا نعلم كنهها.

كنت أسمع عنه فقط، عندما كانت أمي تقصّ لي قصصا عنه، لم أكن أعرفه ولا رأيته إذ كنت رضيعا في ذلك الوقت، ولكنني أشتاق إليه كثيرا، وأحببت لقاءه أكثر، وكنت أتأثّر إلى حدّ البكاء عندما تذكره لي أمي، لأنني من جهة أشتاق إليه وأحببت لقاءه، ومن جهة أخرى كنت أشفق على أمي التي لا تلبث تذكره حتى تغرق في الدّموع ".

فقال لي ذلك الرجل:" سبحان الله، الجبال تلتقي فكيف بالرجال لا يلتقون، إن الإنسان مهما غاب فإنه حتما سيعود ما دام يسري في جسمه شيء من الرمق، وفي عروقه دم الحياة، كما أن الحق مهما علا صوت الباطل في وجهه فإن مصير الحق إلى القمة ومصير الباطل إلى الحضيض.

هل رأيت إلى " عروس النور "، إنها شعار للعلو والسمو والحقيقة والبرهان، قد يحجبها الغمام والضباب، ولكنها سرعان ما تنقشع تلك السحب وذلك الضباب لتظهر وضّاحة في كبد السماء، صدّاحة بقول الحق، نضّاحة بالخير العميم ".

قلت له:" أراك يا عـمّ تقول كلاما جميلا فيه نوع من الإبهام والإلهام، أهي الفلسفة أم ماذا؟ "

فقال:" إنها تجارب الحياة يا بني، إنها المدرسة الكبرى التي نتعلم فيها كل شيء، ندخلها مع أول نفس وأوّل صرخة يصرخها الإنسان حال الخروج من بطن أمّه إلى أن يغرغر ويذهب إلى العالم الآخر.

إننا لسنا مخلوقين عبثا نحن بني البشر، فإذا كان كل شيء في هذا الكون صغيره وكبيره، عظيمه وحقيره، من به الروح ومن لا روح فيه، ما يدبّ على الأرض وما هو جماد قد خلقه الله تعالى لحكمة بالغة، فالأوْلى بهذا الذي كرّمه بالعقل والتمييز أن يخلقه لحكمة أسمى وغاية أعظم.

إننا مخلوقـون لعبادة الله عز وجل وحـده: " وما خلقـت الجن والإنس إلا ليعبدون "، وقد سخّر المولى عز وجل كل شيء في هذا الكون الفسيح الرائع البديع لهؤلاء المخلوقين من بني الإنسان والجان.

ولو تأمّلنا يا بنيّ في هذا الكون العظيم عظم خالقه عزّ وجلّ لوجدنا أن كل شيء يسبّح بحمد ربه ويذعن لجبروته ويسجد لعظمته، فهذه السّموات والأرض، وهذه الجبال والبحار، وتلك الأشجار والبهائم والأطيار، ونفر من الناس يسبّحون بحمد ربهم ويسجدون تعظيما له: " وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ".

قال تعالى:" المال والبنون زينة الحياة الدنيا "، فإن كان هذا المال يطغي ويلهي أو يبعث على الشحّ والبخل أو تسوّل لنا النفس والشيطان أن نتحايل على الله تعالى بجمعه من طريق الرشوة والسرقة والربا فقد خسرنا آخرتنا بجمع حطام الدنيا الفاني، يقتتل الأخ مع أخيه على المال ويعادي أباه وأخاه على المال، ذلك الخسران المبين ".

" حقّا ما تقول يا عمّ، ليتنا نسمع من أمثالكم من حين لآخر من يذكّرنا بمثل هذه الخصال الحميدة ".

" ولكن يا بنيّ ما الذي كنت تضمره في نفسك وأنت تبتسم منذ قليل وتحدّث نفسك؟! "

" هي قصة غريبة حقّا تلك التي وقفت عليها اليوم مع هذا الرجل "

" ومن هو هذا الذي حيّرتك قصّته يا ترى؟ "

" إنّه خالي، ولم أكن أعرف أنّه خالي إلاّ منذ ساعة تقريبا! "

نظر الرجل إلى (مالك) وقد بانت على وجهه تقاسيم الحيرة والعجب ثم قال مبتسما: " القصّة التي تتعلّق بخالك هذا لا بأس بها إلى أن نعرف وجه الغرابة فيها، ولكن القصّة التي مفادها أنّك لا تعلم أنّ هذا الرجل خالك إلاّ منذ ساعة فهذا هو العجب حقيقة، فكيف ذلك !؟ ".

" إنّه (منصور بن إبراهيم)، كان من عادتي أن أعود المرضى في المستشفى تقريبا كل نهاية الأسبوع، راجيا الأجر من الله تعالى، وكان من بينهم هذا الذي يدعى (منصورا)، وكنت أعرفه باسم عمّي (صالح) كما يناديه الجميع، وربّما لو علمت باسمه الحقيقي لذهب بي الشّكّ في أنّ هذا الرجل قد يكون خالي ".

" وهذا الرجل الذي هو خالك ألم تره من ذي قبل حتى تعرفه أو لا؟! "

" لا لم أره قطّ في حياتي، لأنّه عندما رحل في ذلك الوقت كنت رضيعا، ولا أعرفه إلاّ من خلال ما كانت تحكي لي عنه أمّي فقط، فقد ذهب للعمل في المهجر منذ مدة طويلة بعد وفاة والدته رحمها الله تعالى، وترك والده لوحده، ثم لحق إلى الرفيق الأعلى هو الآخر بعد أن قضى مدة الثلاثة شهور ببيتنا، لأنّه لم يجد من يقوم على شؤونه وهو مريض وحيد، مقعد الفراش، كما أنّه لم يرض بالبقاء في بيتنا ورأى في ذلك منقصة له، كما أنه استثقل نفسه علينا، رغم أننا لم نره إلاّ البرّ والحب والرعاية، والبيت هو بيت صهره وابنته لا بيت الأغراب.

لست أدري إن كان خالي هذا يعلم بأن أباه سيصير إلى هذه الحال، فهو عقّه لمّا تركه وأهمله، وما كان له من مأوى بعد فراقه له ورفضه البقاء في بيتنا إلاّ دور المسنّين وبيوت العجزة التي تأوي هؤلاء الذين لم يجدوا سقفا يظلّهم ممّن رماهم أبناؤهم أو وجدوا أنفسهم بلا مأوى لظروف ما ".

يدير (مالك) رأسه إلى النافذة يسيرا من الزمن ويلقي ببصره إلى الخارج والحافلة تشقّ عباب الطريق الطويل، ثم يحوّل بصره إلى الذي بجانبه ويقول:

" حزّ في نفسي أن يذهب جدي إلى دور العجزة وعائلته جم غفير، وينتهي به المطاف وهو لا أنيس ولا ولد ولا شفيق، ويتوفاه الله تعالى هناك في دياجير الغربة غريبا، رغم أن القائمين على تلك الدور لا يتوانوْن في منح الرعاية الغذائية والطبية والنفسية، ولكن أنّى لهم ذلك والجروح التي أصابت أفئدتهم وأكبادهم بها من القروح ما لا يداويه طب ولا راق، وعزّ عليّ أن أرى أمي المسكينة رحمها الله تعالى تصاب في قلبها مرة وأخرى، الأولى مصابها في أخيها، حينما رحل إلى المهجر يطلب الرزق ولم يظهر عليه أي خبر حتى توفاها الله تعالى إلى جواره، والثانية حينما ذهب أبوها إلى دور العجزة والمسنين وهي لا تعلم بمكانه، ثم هي ما برحت تعالج همّ أخيها حتى عضها الزمان فنكأ لها جرحا ما اندمل حين بلغها بعد ذلك خبر وفاة والدها وهو يكابد مرارة الفرقة وقسوة الولد، فأعقب ذلك في نفسها حزنا وحسرة لا حدّ لهما، وفي قلبها تعتلج حرقة الوالد الحبيب ولوعة الشقيق الغريب.

رحلت عن الدنيا وهي لا تعلم أهو حي أم ميت، حتى سمعتُ اليوم بخبره حيا، ولكنني لم أعثر عليه بعْدُ، فقد كان في المستشفى الذي كنت أزوره فيه وأما اليوم فقد خرج، وسيكون لي معه موعد بإذن الله تعالى.

# -٢٦-

سرحت برهة من الزمن والحافلة تسرع وتطوي الطريق طيّا، وأنا أفكر في هذا الخال الذي أشعل جذوة الشوق إليه، وأحيا ما مات من رميم الذكريات، وأوقد مصابيح الأمل في العثور عليه، وقلت مخاطبا نفسي:" سبحان الله، هذا خالي (منصور) الذي طالما سمعت عنه من أمي كثيرا، لقد كان أمامي حيا يرزق، كيف لم أقبّله وأحضنه، وألثم يديه وجبينه، وأشمّ رائحته ففيه رائحة أمي رحمها الله تعالى، كيف لم أسأله عن ماضيه وعائلته وإخوته ووالديه، وكيف لم أكتشف الشبه بينه وبين أمي رحمها الله تعالى، بلى لقد سألته ولكنه كان يتهرّب، واليوم فقط عرفت السر المكنون الذي كان هذا الرجل يخفيه عني، إنه الذنب اللصيق الذي صار كالوحش الضاري المكشّر الغضوب يتبعه أينما حلّ وحيثما وجد، ألا وهو عقوق الوالدين.

آه يا أيها الخال لو تعلم ما حل بوالدتي من الهموم التي تنوء بحملها الجبال لَمَا فكّرت في السفر، ولرجعت إليها حين عودتك من السفر إشفاقا عليها ورحمة بها، فإنني لم أر حبا ولا شوقا من شخص إلى آخر يعدل حبها وشوقها إليك، ولقد كنت أراها تبكي وتنتحب فيؤلمني ذلك، وليس لي من حيلة حيالها إلا أن أزودها من الصبر الجميل، حتى بكته ما بكى يعقوب على ابنه يوسف عليهما السلام، وكاد يذهب بصرها كما ذهب بصره، ولكنها لم تستطع عن يوسفها صبرا، وكنت أقذف في قلبها من حين لآخر من الآمال نور لعلك ترجع إلى البيت يوما ما حتى توفاها الله تعالى وقد أصبح قلبها إربا قد مزّقته الهموم.

أما اليوم وقد عثرت عليك حيا، فسيكون من الوفاء بالعهد لها أن ألتقي بك وإن طال بي الزمن إن شاء الله تعالى.

آه يا أيها الخال العزيز لو تعلم ما حل بوالدك من الأحزان، ثم من المرض، ثم من الوحدة والفراق وهو يعيش بين جدران دور العجزة التي ضاقت بأهلها، مع هؤلاء الذين جار عليهم أبناؤهم مثلك أو قست عليهم الأحوال حتى قضت على أحلامهم وجعلت نفوسهم جذاذا قد كسرتها فؤوس الحزن والغربة، ومعاول الوحدة والفراق، وجرعتهم من كؤوس البؤس والبعد عن الأهل والخلان حتى ثمالتها.

لا جرم أنكم أيها الأبناء الذين دفعتم آباءكم وأمهاتكم فريسة تنهشها وحوش الغربة والبؤس والوحدة والفراق مجرمون، في حق المجتمع أولا ثم في حق هؤلاء الآباء الضعاف المساكين.

ألم تحملكم أمهاتكم في بطونهن شهورا وهْنا على وهْن وحملكم وفصالكم ثلاثون شهرا.

ألم تسهر أمهاتكم عليكم وأنتم ضعاف لا حول لكم ولا قوة، وأرضعنكم حولين كاملين وسهرن إن مرضتم وبكين إن أصابكم مكروه وأنفقن من أعمارهن وراحتهن وجهدهن وتفكيرهن فيكم حتى كبرتم واستقامت أعوادكم.

أما سهر عليكم آباؤكم رُضّّعا ثم صغارا فكبارا، وشقوْا في توفير مصاريف المأكل والمشرب والملبس والمسكن والدواء والدراسة، ثم تعبوا كذلك في تربيتكم وتنشئتكم حتى أصبحتم اليوم رجالا يافعين تملؤكم الصحة وتعتليكم القوة، فملأكم الغرور واعتلاكم الكبر، فقطعتم تلك الأيادي الشريفة التي مدّت إليكم تخدمكم وتحسن إليكم.

بؤسا لكم أيها الذين رميتم آباءكم في دور العجزة والمسنين وأنتم لا تعلمون أنكم ارتكبتم جرما عظيما في حق هؤلاء الأبرار الأطهار، فكيف تقطعون الأرحام التي هي أحقها بالوصال، وتنكرون الجميل ممّن لو أفنيتم أعماركم خدمة تحت أقدامهم لما وفّيتم معشار ما أسدوْه لكم وما بلغتم مدّ أحدهم ولا نصيفه، فهم أهل للإحسان، أفلا تعقلون.

ألم تعلم يا أيها المغبون أنّك " أنت ومالك لأبيك "، ألم تقرأ قول المولى عز وجلّ:" واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا "، وقوله تعالى: " وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربّياني صغيرا "، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم:" رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف من أدرك والديه أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة ".

# -٢٧-

استفقت من غفلتي وأنا أحدّث نفسي على وقع كلام بائع التذاكر، وإذا بالرجل الكريم الذي يجلس بجانبي يدفع عني ثمن التذكرة، فلم أرغب في ذلك إلا أنه أصرّ ودفع ثمن التذكرتين معا، فلفّ الحياء رأسي مما فعل وشكرت له حسن الصنيع وقال:

" لا شكر على واجب يا بنيّ "، ثم صمت هنيهة وكأنّ خاطره يحوّم حول فكرة تدور برأسه، ثم أردف يقول:

" إليك مني يا بنيّ هذه القصة التي سأحكيها لك، فإنها قصة عشتها وليست مما نسمع من الناس فقط.

تزوّج أبي بأمي منذ الزمن البعيد، وكنت الولد الوحيد لهما، ولم أبلغ حينذاك العام الأول من عمري، حتى توفّي والدي عليه رحمة الله على إثر مرض عضال.

لم تجد أمي من يعولنا فخرجت تطرق أبواب الرزق حتى عثرت على عمل متواضع تكسب منه قوت يومها فتدفع به عني وعن نفسها ذلّ المسألة والحاجة، وتربّص ذئاب العرض والشرف، عملت لمدة نصف عام حتى جاء رجل يخطبها إلى خالي، استشارها فطلبت منه التريّث لبعض الوقت حتى تستشير وتستخير في أمر هذا الرجل، فقبلت على مضض لأنها فجعت في والدي ولم تكن ترضى به بديلا لو لا رحيله عن هذه الدنيا، ثم إنها لا تعلم من طباع هذا الرجل وأخلاقه إلاّ النّزر اليسير ممّا يحكيه عنه الناس، وربّ مدح منهم اليوم سيصير قدحا بعد التجريب غدا، ثمّ إن أمي لتشفق عليّ وأنا اليتيم الوحيد الضعيف الذي ليس له صدر يأوي إليه إلاّ صدر هذه الأم المسكينة، وهي تخاف أن يقلب لها ظهر المِجَنّ فيرميه إلى الشارع ولا يجد بعد ذلك من يربّيه وهو لا يزال بعد غضا طريا ضعيفا.

وكان هذا الرجل الذي طلب يدها قد توفّيت زوجته وخلّفت له ولدين يكبراني بسنين، فتزوجته أمي بعد أن قبل شروطها وخاصة فيما يتعلق بي، ورزقت منه ابنة، ورأت من أخلاق هذا الرجل الكريم فيما بعد ما خفّف عنها بعض الحزن على فراق الوالد، ولزمت بيتها وقامت علينا نحن الأبناء الأربعة وزوجها خير القيام، لا تفرّ ق بيني وأختي وبينهما، وربما آثرتهما علينا خشية أن تميل بعض الميل كما يميل قلب الزوج إلى إحدى الزوجتين فيذر أحدهما كالمعلقة، وعشنا جميعا عيشا رغدا رغم قلة ذات يديْ زوج والدتي، ولكن الغنى هو غنى النفس والروح، لولا أن أخواي من زوج والدتي لهما من سوء الطباع ما شقّ على أبيهما ووالدتي.

تتابعت الأيام والأعوام تترا، كبر أخواي من زوج أمي، فتزوّج الأول واستقلّ ببيته وزوجته، ثم تزوّج الثاني بعده بعامين، وكنت حينها أدرس بالجامعة، وقد حذا هذا الأخير حذْو شقيقه فخرج ببيته وزوجته وأولاده.

لقد تنكّر هذان الأخوان لهذا الأب الكريم، لأنّهما أصبحا لا يسألان عن أحواله، ولا يزورانه، ولا يعودانه إن مرض، ولا يسألانه عن أحواله، وبقيت مع أمي وأختي وزوج أمي حتى أتى ذلك اليوم.

في ذلك اليوم قرّرت الزواج، فخطبت إحدى البنات بعدما تحصّلت على الوظيفة، وكم تألمت كثيرا عندما أسرّت إليّ أمي يوما ما حديثا فقالت:

" أريد أن أحدّثك يا بنيّ عن موضوع مهمّ، وأنا أعلم رصانتك وسعة نفسك وكبر عقلك، فأنت ولدي وفلذة كبدي، ربّيتك فأحسنت بعون الله خلقك.

ولقد عشت مع هذا الرجل عمرا أكثر ممّا عشته مع أبيك، والشهادة لله فقد أحسن إلينا جميعا، كفّ عنا مدّ أيدينا إلى الناس، وكفّ عني شر المتربّصين بعرضي من ذئاب البشر، فكساك وأطعمك وعلّمك وأختك، حتى صارت اليوم في سنّ الزواج وصرت بحمد الله تعالى ومنّه وفضله رجلا هو عمادي الذي أعتمد عليه بعد الله تعالى وهذا الزوج الكريم.

إنّي أتذكّر فيك اليوم صورة ذلك الرجل الذي هو تحت التراب وأتذكّر فيك أيضا شهامة زوجي الذي أظلّنا بعد الله تعالى بالحب والإحسان، وأرى فيك يا ولدي الكرم والخلق والشجاعة، وأنت تعلم ما فعل أخواك من زوجي حينما تزوّجا واستقلاّ ببيتهما، لقد تركا والدهما بعد أن كان لهما نعم الوالد ونعم المعيل، وكان يأمل أن يراهما كما يراك اليوم رجلين يعتمد عليهما، والحق أنني لم أقصّر معهما سواء في نصح أو تربية أو خدمة، ولكن كانت رواسب من شوائب سوء الأخلاق قد رانت على قلبيهما من سالف أيّام الغفلة، فكان ما رأيتَ من تصرّفهما مع أبيهم.

لقد خلّف ذلك في نفسيّته وإن لم يكن يظهر لكم عليه حزنا وهمّا لا يعلم مداهما إلا الله تعالى وأنا، غارا إلى قلبه فأفقداه كل طعم للحياة، ذلك أن السهم الذي رُمِي به في كبده فأصاب منه المقتل، قد أتاه من ثمرة فؤاده، ألا وهما ولداه.

أما اليوم وقد كبرْتَ وحصلت على الوظيفة وقرّرت الزواج فستقرّ بك عيني، وهذا هو اليوم الذي جاهدت في سبيله سنين، وبذلت للوصول إليه مهجة القلب وزهرة العمر، كما كنت أتمنّى أن يشبّ أخواك على ما كبرت عليه من الأخلاق، وقد بذلت في ذلك قصارى الجهد، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

وإني إذ أرى فيك دماثة الخلق، وحسن التدبير، وإحسانك الصحبة لي ولزوجي، قصدتك اليوم في موضوع أدعو الله تعالى أن تكون منه على بصيرة، وأن تتّبع فيه سبيل الرشاد ". فارتبت في هذا الموضوع وقلت:

" وما هو ذاك يا أمي، إني أفديك بعيني وروحي ونفسي "

فقالت:" أعلم أنني من قلبك ونفسك بمكان، وأنني بمحل الروح من جسدك، ولكن الذي أقصد هو هذا الرجل الذي هو زوجي "

فقلت لها:" يا أمّاه يا قرّة عيني، إن هذا الرجل الذي هو زوجك -على غير عادة أزواج الأمهات- ما أحسست يوما ما بأنّه غريب عنّي، وإنني لم أر منه إلا الخير والرحمة والرفق والرأفة، لقد كان لي العوض عن أبي رحمة الله عليه، ولكن ما هو هذا الموضوع الذي يتعلّق به يا ترى؟! "

صمتت أمّي قليلا، فانتبهتُ لها وإذا بدمعة تنزل من عينها، فدنوْت منها وإذا بها تنتحب، فمسحْتُ دمعتها وأمسكْتُ يدها، وقلت:" هل أصابه من مكروه يا أمي، أخبريني ما به أبي؟! "

نظرت إليّ أمّي بعين ملؤها الدمع والحزن وقالت:" لقد أسرّ لي اليوم بأنه يريد أن يخرج من هذا البيت "

" لماذا؟، وهل رأى منّي ما ضايقه، أو أن هناك شيئا بينكما لا أعلمه؟ "

" إنّ الأمر يتعلّق بكَ يا بنيّ، فعندما سمع بالخطبة وبأنك تريد الزواج، قال لي: ليس لكم فيّ حاجة الآن، اليوم أدّيْتُ دوري عندما أوصلت بحمد الله تعالى ومدده هذا اليتيم وأخته إلى هذا المطاف، وارتحت عندما كبر ولداي وأصبحا لهما دار وعائلة، لو لا أنّهما قد أضْرَمَا النار في قلبي، ولكنّني أسامحهما على ما اقترفا في حقّي، لو لا أن روحي قد خرجت مرتين عندما خرج الأوّل مستقلا ببيته ثم تلاه الثاني، وما عليّ إلاّ أن أترككم تعيشون حياتكم على الرغم من حبي الكبير لكم.

أمّا ابنكِ فهو نعم الرجل ولا خوف عليه، وأما أنت وابنتك فإني أرتاح لولدك إن تركت معه أمانة مثلكما ".

لم تكمل أمي حديثها حتى قاطعتها قائلا:" وإلى أين يريد الرّحيل يا أمي؟ "، فقالت: " للأسف يا بنيّ إلى دور العجزة والمسنين... "

لم أتمالك نفسي من هول ما سمعت، وأطرقْتُ برهة من الزمن مندهشا وتلك العبارة الكريهة البغيضة " دور العجزة والمسنين... "، ترنّ في أذني رنين الرّعد المدوّي على حين الغفلة.

أحسَسْت وكأنّ أطرافي بها شيء من البرودة التي تنزل إثر الخبر المفزع، وبكيت ما شاء الله أن أبكي حال هذا الرجل الكريم الذي تخلّى عنه ولداه من غير جريرة ولا ذنب، وبكيت حاله وهو يجود بنفسه ويتخلّى عن بيته عن طيب نفس منه، رغم أنّ الدّار داره والكلمة كلمته، وأين كنّا نحن عندما آواني ووالدتي وولديه وتعب علينا ورأى من المشقة والسهر ما يفتخر به من خرج في طلب الرزق وآوى أرملة وأيتاما يطلب الأجر من الله تعالى، " الساعي على الأرملة واليتيم كالمجاهد في سبيل الله القائم ليله الصائم نهاره "، ثم يؤول مصيره إلى هذه النهاية الأليمة.

لم أستطع أن أكتم دموعي عندما سمعت ما قالته لي أمي، ولا أن أتوقّف عن البكاء بسبب هذا الخبر الأليم، وكأنني سمعت بنبإ وفاة حبيب أو ضياع شيء عزيز لا يقدّر بثمن ولو بكنوز الدنيا، عندها علمت أمي وأيقنت من خلال الذي أصبت به من الحزن والبكاء حينما سمعت هذا الخبر أنني لن أخيّب ظنّها، وأن الذي يصيب أبي سيصيبها من باب أولى، وقلت لها:

" لئن فعلت هذا مع أبي الذي رغم أنه لم يلدني إلا أنّه ربّاني ورعاني وكفلني وأنا في مسيس الحاجة إلى الأب الحنون، ولئن كنت فاعلا شيئا من هذا القبيل في من أسدى لي يد الإحسان سأكون جديرا بالعقوبة الدنيوية وأمّا الأخرى فهي أدهى وأمرّ، ولن ألوم أحدا إن رأيت من العيش ضنكا أو لاقيت من المصير نفس ما فعلته مع أبي ولأقطعنّ يدي ما دمت قطعت يدا مدّت لي الإحسان، أتظنّين أني فاعل بك ذلك يا أمي؟ "، فأجابت:" ليس من شيمك يا بنيّ، وحاشاك أن تفعل ذلك وأنت الذي لا تقابل الإحسان إلا بالإحسان ".

" إذن فقولي له يا أمي بأنه لن يخرج من هذا البيت، وسنعيش سويا كما كنا، عسى أن أردّ قطرة من بحر الجميل الذي غمرتماني به، ولعلّني أحظى بالبركة منكما، وادعوا الله الكريم لي حتى يعينني على إرضائكم فأردّ جزءا من الجميل المسدى، وأُخلَف في ذريّتي الولد الصالح ببركة دعائكما، وأنال رضا الله تعالى يوم لا ينفع مال ولا بنون ".

وعشنا جميعا في رغد من العيش الكريم، نتقاسم مرّ الحياة وحلوها، ضرّاءها وسرّاءها، ثم تزوّجت أختي بعد ذلك، ورزقني الله تعالى خمسة من الولد، أحمده عز وجلّ على ما منّ وأعطى، لا يعصونني في أمر ولا يفعلون ما نهيت عنه، وهؤلاء الجدّان يتربّعان على مجد الطاعة والحب والإحسان مني ومن أولادي وزوجتي.

أما اليوم فقد توفّي والدي - عليه رحمة الله -، وأنا راض عن نفسي إذ أرضيته في حياته، فكان يدعو لي ولأولادي بالخير والصلاح، والتقوى والفلاح، حتى سار إلى مولاه والنفس تنشرح بالطاعة للوالدين والإحسان مرضاة لله من جهة، وبما كنت أسمعه منه من الدعاء لنا والشكر لله تعالى لقاء طاعتنا له ولأمي حينما تنكّب ولداه وأدارا ظهورهما لهما.

وأمّا أمّي فهي بحمد الله تعالى لا تزال حية ترزق، تكلؤني وأولادي وزوجتي بالدعاء والنصح، ونتفيّأ في ظلال بركتها والإحسان إليها، ونتقرّب إلى الله تعالى بطاعتها وحبّها ".

أتمّ هذا الرجل قصّته، وبعد زمن يسير استأذنني في النزول بعد أن انتهت رحلة سفره، وتابعت الحافلة سيرها ولم يبق لي من الوقت حتى أصل إلى القرية إلاّ قرابة النصف ساعة.

بعدما أتمّ هذا الرجل قصّته، بدأت أفكّر في نفسي وأقول:" هؤلاء الأبناء من صلبه ولم يرعوا حقّ والدهم، وجاء من هو ابن رجل آخر، ورعى حقّ هذا الرجل الكريم، وما ذلك إلاّ لأنه رأى وجه الله تعالى في هذا اليتيم وفي هذه الأرملة فجازاه خيرا من ولده، ثم إن النفوس الكريمة لا تنكر اليد التي أسدت لها الخير والإحسان، وإن أكرمت من هو حقّ للإكرام والإحسان جازاك بخير مما قدّمت له، وهل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان، وأمّا اللئيم فهو في جحوده وتمرّده مغلول، وكما قال الشاعر:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمرّدا

... ولله في خلقه شؤون...

# -٢٨-

وصلت إلى الدار وقد أدركني المساء وكاد أن يظلّني الليل، فعندما دخلت وسلّمت على أبي وجدته مع الصغيرين (آدم) و(صفية)، فسألت عن (أحمد) أطمئنّ عليه وقد أظلم الجوّ، والسّهر في الخارج ليلا لا يأتي بالخير، فقال: " إنّه بالغرفة " فاطمأنّ قلبي.

جلست قبيل المغرب مع أبي وإخوتي والصغيران يلعبان، فقال لي والدي:

" كيف أحوال من زرتهم اليوم في المستشفى، هل هم بخير؟ "

فقلت له: " لم أجد المريض الذي ذهبت لزيارته، لقد خرج من المستشفى "

فقال والدي:" الحمد لله لأنه تماثل إلى الشفاء وخرج ليعود إلى أهله وأولاده "

فقلت له: " نعم، الحمد لله فقد أخبرني موظّف الإستعلامات أنه تحسّنت حالته وأصبح خيرا من ذي قبل،... "

صَمَت (مالك) قليلا فأحسّ به أبوه وكأنّه يدور بخاطره كلام يحدّث به نفسه، فقال له: " ما لك يا (مالك) لم تعجبني، فمنذ أن دخلت إلى البيت وأنا أراك شاردا ما الذي حصل في سفرك؟ "

فقال له (مالك): " منذ متى لم تر خالي (منصور) يا أبي؟ "

ابتسم (علي) وقال:" خالك (منصور)!، لقد رحل منذ أكثر من عشرين سنة إلى المهجر، ولم نسمع عنه منذ ذلك الوقت أيّ خبر، ولسنا ندري هل هو على قيد الحياة أم توفّي... "، ثم صمت هنيهة وقال:

" ولكن ما الذي ذكّرك به اليوم يا بنيّ "

" صِفهُ لي يا أبي "

الأب مستغربا: " مَالك يا ولدي، لقد ذهب منذ مدّة طويلة وقد يكون اليوم قد تغيّرت ملامحه،... "

فقال له (مالك): " إذا قلت لك يا أبي بأنّني وجدت خالي (منصورا)، فهل تصدّقني؟ "

فقال له والده وهو يستغرب أمره:" ما الّذي تقول يا (مالك)، فإنّني لم أفهم ماذا تقصد...؟! "

مالك: " عندما ذهبت إلى المستشفى في هذا اليوم قاصدا زيارة العمّ (صالح)، فوجئت به قد غادر المستشفى منذ أيام، إلى أين؟ لا أدري... "

" وهل تريد أن تزوره في بيته كذلك؟ "

" نعم يا أبي، فقد حصلت على عنوانه من إدارة المستشفى "

" وما العلاقة بين هذا الذي يدعى (صالحا) وخالك؟ أراك مهتمّا بهذا الرجل كثيرا يا (مالك)! "

أطرق (مالك) يفكّر قليلا ثمّ قال:" هل تدري ما اسم هذا الرجل الذي نناديه (صالحا) يا أبي؟ "

" وما هو اسمه يا ترى؟ "

فأجابه (مالك): " اسمه (منصور بن إبراهيم)...، وأظنّه خالي لأنّه قال لي بأنّه عمل بالمهجر منذ زمن وربّما يكون هو "

بقي (علي) ينظر إلى ابنه مندهشا، وهو لا يدري هل يصدّق ما سمعت أذناه أم أنّه تشابه في الأسماء فقط!، ثمّ قال له: " لأذهبنّ معك في المرة القادمة عندما تذهب للبحث عنه، وندعو الله تعالى أن يكون هو! ".

# -٢٩-

هذه الحياة الدنيا...

ترفع أقواما وتضع آخرين، تعز عبادا وتذل آخرين، يحلو فيها العيش ويتنغّص، ويستغني فيها الإنسان ويفتقر، فيها القوي والضعيف، والصحيح والعليل، والغني وذو الحاجة، والحَسَن والقبيح.

جرينا وراءها متكالبين على حطامها الفاني، كمن يجري خلف السراب حتى إذا جاءه لم يجده شيئا وباء بالخيبة والخسران، يتقاتل الأخ مع أخيه والجار مع جاره والولد مع والده،... ليت شعري بئس العيش عيشنا، فلو تسامحنا وتواددنا وتعايشنا إخوة متراصّين لسعدت حياتنا ولنزلت الرحمة بيننا والبركة في أموالنا وأهلينا وبيوتنا.

و لست أرى السعادة جمع مال ولكــن التـقـيّ هـو السعـيـد

من كان له فضل من مال فليعد به على من لا مال له، ومن كان له فضل من طعام فليعد به على من لا طعام له، ومن كان له فضل من لباس فليعد به على من لا لباس له، ومن كان له فضل من ظهر فليعد به على من لا ظهر له،... حتى لا يكون لأحد منا حق في فضل من طعام أو لباس أو دابة، ومن كان له مال بلغ النصاب فليؤد حقه ولْيصل بالصدقة الفقراء والمساكين والمحتاجين والغارمين...

ومن رأى محزونا عزاه، أو مكروبا واساه، أو محتاجا مشى في حاجته، أو جائعا أشبع جوعته أو غارما أدى عنه دينه، أو صاحب عيال أعانه، ألا يا أيها الناس لقد تزينت لكم الجنان وأنتم في غفلة السكران، ونادتكم الفردوس وأنتم عنها معرضون.

ألم تعلم بأن المصطفى - صلى الله عليه وسلم- يقول:" أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين"، وذلك لقرب منزلته منه، وقوله - صلى الله عليه وسلم-:" القائم على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله الصائم نهاره القائم ليله".

إن فضول المتاع في هذه الحياة يجب أن ترى ضالتها إلى من هو أحوج إليها، وكم من فقير لا يشبع حتى من فتات موائد المترفين ومما يرمونه إسرافا وتبذيرا، ثم إن الإنسان مهما أوتي من مال فحسبه منه طعاما يشبع جوعته، ولباسا يستر عورته، ومسكنا يأوي إليه، وكل ما عدا هذا فهي فضول ليس له حاجة إليها، ولكنها النفس التي لا تشبع والقلب الذي لا يقنع والعين التي لا ترضى ولن يملأها إلا الدود والتراب.

وهوّن عليك أيها الفقير فلا تجزع، واقنع بما حصل لك من الرزق فالفقراء دون حال عيشك كثير، وبما وهبته من الولد فإن خلقا كثيرا من الناس عقيم، أو بما تتنعم به من العافية فإن أهل البلاء كثيرون، أو بما ابتُلِيت به من المرض فإن نظرت حولك لوجدت العمي وأنت ترى والمقعدين وأنت تمشي والصم وأنت تتكلم والبكم وأن تسمع وتعقل، وحسبك من ذلك:

من أصبح معافى في بدنه، آمنا في سربه، يمتلك قوت يومه فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها، والقناعة كنز لا يفنى، وكما قال الشاعر:

ألا يا جامــــع الأمــوال هــلاّ جـمعــت لهـا زمانـا لافـتــراق

رأيتـك تطلب الأبحار جهــلا وأنـت تكاد تغرق في السواق

إذا أحرزت مال الأرض طرّا فما لـك فـوق عيشك من تراق

أتأكـــل كل يـوم ألـف كبــش وتلبـس ألف طاق فـــوق طاق

فضـول المـال ذاهـبة جــزافـا كماء صـب في كـأس دهــاق

يفيض سدى وقد يسطو عليها فينقـص مـلأها عنــد اندفـاق

ثم سر في الأرض يأتيك من الأخبار ما يثلج صدرك، فهذا فرعون قال أنا ربكم الأعلى فأغرق في اليم، وقارون له من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة من الرجال الأقوياء، وكان مصيره أن خسف الله به وبداره الأرض، وهامان الذي سعى في الأرض فسادا وتجبرا وتكبرا انتقم الله منه بأصغر مخلوق، ألا وهو البعوض،... وما يعلم جنود ربك إلا هو، فاعتبروا يا أولي الأبصار، وفي التاريخ أخبار أقوام عتوْا عتوّا كبيرا فكان مصيرهم السّوأى والله المستعان.

# -٣٠-

نهضت وأبي في هذا اليوم باكرين، قاصدين المدينة للبحث عن المكان الذي يقيم فيه خالي (منصور)، ركبنا الحافلة ونحن نرقب فجر هذا العيد السعيد، عيد العثور على هذا العزيز الذي غاب منذ زمن بعيد، غاب وقد خلّف في نفوسنا المرارة وأورث في حياتنا الشوق المحرق، ونحن يشدّنا الأمل في العثور على المكان الذي يقيم فيه.

أما مكانه فنحن واثقين بأننا سنعثر عليه إن شاء الله تعالى ما دام العنوان بحوزتنا، وأماّ أن يكون هذا الرجل الذي يدعى (صالحا) هو خالي (منصور) فهذا ممّا لا أظنّ أنه سيكون نقيضه كذلك.

ذلك أنّني كنت شديد التعلّق بهذا الخال المجهول، كثير الشوق إليه، فكلما التقيت به مرّة عندما كنت أزوره شدّني الحنين إلى العودة إليه مرّة أخرى، وكلّما اكتشفت منه سرّا شدّني الفضول إلى الإستزادة للإستماع إلى ما يختبئ في قرارة سريرته أكثر، وقد وقفت اليوم على حقيقتين كانتا سرّين وهما اليوم واضحتان كالشمس للعيان، فأمّا اسمه فقد اكتشفت حقيقته، وأمّا ذلك السرّ الذي وقفت محتارا أمامه شهورا وكنت على ثقة بأنّني سأجد له بإذن الله تفسيرا فهذا السر هو تفريطه في جناب والده الذي اضطرّته الظروف للذهاب إلى بيت العجزة والمسنّين، وحتّى هذه الساعة ما زال ضميره يؤنّبه.

إنّ النفوس لا تتعلّق بغيرها إلاّ إذا ائتلفت ثم تتعارف بعد ذلك، كما كان ديدني مع الرجل الذي تعلّقتْ به نفسي فألفيته خالي، وسبحان الله كيف بحثنا عنه سنين فلم نجده، ووجدتُه بمحض الصدفة!.

سرت وأبي من شارع إلى شارع، وهي تكتظّ بالناس والسيارات قاصدين العنوان الذي دوّنه لي موظف الإستعلامات في المستشفى، ونحن على أحرّ من الجمر للقاء هذا الخال الحبيب، الذي لم أره في حياتي فلمّا رأيته لم أعرفه ولو عرفته لبذلت له ماء العيون ومهجة الفؤاد طاعة له وإحسانا، لأنّ له منّي حبلان من الودّ والقرب، أولاهما أنّه خالي فهو رحمي، و" الرحم معلّقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله "، وثانيهما أنّ هذا الخال كانت أمي تحبّه كثيرا وقد بذلتْ من أجله دمع العين حتى كادت تعمى، وحرقة الفؤاد المحزون حتى أوشكت أن تقضي، ولوعة الكبد المحروقة حتى نال من شبابها وربيع عمرها الخريف.

كما اشتاق إليه والدي الذي هو صهره وأخ زوجته التي كانت تمثل له صرحا عظيما تمثلت فيه صورة حسن عشرة الزوجة المؤمنة، وحنان الأمّ الرّؤوم، وصحبة الصاحبة المعينة على نوائب الدهر، وكيف لا يشتاق إليه كذلك وهو من القرابة له بمكان.

ركبنا سيارة الأجرة، وكان التنقل إلى المدينة الجديدة يتطلب منّا للوصول إليها مدة النصف ساعة ركوبا في السيارة، وبعد قرابة ذلك الزمن وصلنا، وقصدنا شارع الحرية بعد أن دلّنا عليه أحد المارة، فلمّا وردنا هذا الشارع وقد بدأ يساورني شئ من الظنّ إذ كان شارعا به بنايات حكومية لا تنبئ بأنّها مساكن، فاقتربنا رويْدًا رويْدًا من الباب الذي يحمل الرقم ١٧٦، وقفت أمامه فإذا بناية كبيرة من ثلاثة طوابق تحسب إذا رأيتها بأنّها فندق، بها باب كبير يتوسّطه باب صغير، قد جاورته غرفة صغيرة بها نافذة دنت من الأرض بمقدار المتر، لا تسع إلاّ بمقدار ما يسأل السائل عن أمر يهمّه كما ترى الشبابيك في مصلحة البريد أو البنك، فإذا هي مركز المراقبة، اقتربت من ذلك الشباك ونكّست قامتي مطلاّ من خلال تلك النافذة الصغيرة وإذا بشاب في مقتبل العمر يجلس خلف مكتب صغير قد وضع فوقه دفتران كبيران، يرتشف كوبا من الشاي ويتصفّح الجريدة فلمّا ألقيت عليه السلام وردّه قلت:" هل هذه هي البناية رقم: ١٧٦؟ "، فقال:" نعم "، عندها رجعت إلى الخلف ورفعت رأسي فإذا لافتة كبيرة ولم أكن رأيتها من قبل، كتب عليها: " دار الإحسان الحكومية للعجزة والمسنّين ".

وكان أبي خلفي ببعد الثلاثة أمتار، وقد حسب أنّني أريد السؤال فقط عن الرقم الموجود في العنوان، ذلك أنّ هذه البناية لا تنبئ بأنّها مسكن يرتاده الناس، ولكنّ الظن ما زال يساورني، رجعت إلى أبي وأسررت إليه حديثا فرآني ذلك الذي خلف الشباك أحدّثه، ثم رجعت إليه مرّة أخرى وأبي معي، فنظر إليّ نظرة المرتاب في أمري إذ رآه معي، وقد يكون ذهب به الظنّ بأنّني أريد أن أرميه عندهم وأنصرف كما يفعل الكثير من الأبناء مع آبائهم، ثم سألته:" نحن نبحث عن مقيم عندكم هنا "

فقال الموظف:" ما اسمه، واسم أبيه، وتاريخ دخوله إلى الدار؟ "

قلت له:" اسمه (منصور بن إبراهيم)، وأمّا تاريخ دخوله إلى الدار فقد يكون في غرّة هذا الشهر! "

فتح الموظف السجل الكبير ونحن ننتظر، ولا ندري هل نفرح إذا ما وجدناه هنا أم نحزن لما آل إليه من تنكّب الأيام، ثمّ قال:" يوجد عندنا نزيل بهذا الإسم، ولكن (منصورا) هذا يقيم عندنا منذ عامين! "

قلت له:" لقد كان يعالج بالمستشفى منذ ما يقرب الشهر، واليوم قد خرج إلى هذا العنوان الذي دلّني عليه موظف الإستعلامات بالمستشفى "

فأجاب الموظف:" إذا كان كذلك فإنّه هو، فقد خرج من المستشفى منذ مدّة فقط "

قلت له:" ومتى يكون موعد الزيارة يا أخي؟ "

قال:" على الساعة الثانية عشرة ".

شكرت ذلك الموظف وقد أصغى والدي إلى حديثه، وأحسست بشعور غريب تجاه هذا الموقف الذي صادفنا، ثم قلت لأبي:" نذهب الآن لنشتري بعض الفواكه لزيارته، فإنني متأكّد بأن هذا هو خالي "

فقال والدي:" وهو كذلك يا ولدي، فما في ذلك شكّ "، وانتظرنا وكانت الساعة قد اقتربت من الثانية عشرة.

# - ٣١-

دقّت عقارب الساعة الموعد المنتظر، دخلنا وكان الزوار من القلّة إذ يُحصَوْن عدّا، فلمّا كنّا بداخل الدّار استقبلنا كهل أنيق بدا على مظهره الجميل أنه شخص مهمّ، صافحنا ورحّب بنا وأدخلنا بهو الدّار، ثمّ قدّم نفسه فإذا به مدير الدّار وهو طبيب نفساني، وسألنا عن الأشخاص الذين نريد زيارتهم، فلمّا كان دورنا نظر إلينا وقال: " لم أراكما من ذي قبل، أهلا وسهلا بكما "، فابتسمت وهززت رأسي ردّا للتحيّة وقلت:" وبك أهلا وسهلا يا أستاذ، وهو كذلك فهي أوّل مرة نزور فيها نزيلا عندكم "

فقال وقد بان في كلامه شيء من الغلظة:" أين أنتم من أهاليكم يا أخي؟!... "، ثمّ تفطّن لكلامه الذي خرج من فيه وتحت طيّاته شيء من القسوة واستدرك يقول مبتسما:" إنّ هؤلاء المقيمين بالدّار يا بنيّ محتاجون إلى أهليهم أكثر ممّا هم يحتاجون إلينا، فأنت تعلم بأنّ نفوسهم مكسورة، وقلوبهم من الحزن والتفريط فيهم معصورة.

حقيقة فهم لا يحتاجون إلى شيء من مسكن أو غذاء أو كسوة أو رعاية طبية، ولكنّهم في أمسّ الحاجة قبل هذا وذاك يا بنيّ إلى من يجبر خواطرهم، ويداوي جروحهم ويحسّون بأنّ لهم قيمة معنويّة واجتماعية بين أهاليهم وأفراد مجتمعهم، إنّهم يعانون من ذلك الأمرّين، فلا ينفع معهم الطب النفسي ولا غيره إلاّ بالنّزر اليسير، في حين ينفع معهم أن يحسّ بهم غيرهم ويحقّقوا ذواتهم بين أفراد المجتمع، فهب أنّ والدك أخرجك من البيت، فكيف تحسّ؟ أكيد أن شعورك سيكون رهيبا تجاه ذلك الموقف القاسي، هذا والدك وله سلطة عليك - وإن لم يكن من حقّه فعل ذلك - فكيف بمن رمى والده أو أمّه إلى هذه الدّيار وهما اللذان كانا سببا في إيجاده، وتعبا عليه وربّياه ودرّساه، وأنفقا الغالي والنّفيس حتى يشبّ رجلا يُعتمد عليه، فيكون تصرّفه مع والديه هذا التصرّف القاسي.

إنّكم بفعلكم هذا أيّها الأبناء كصاحب الحديقة التي له بها زرع وأعناب وعيون، فلمّا أوشكت أن تؤتي ثمارها جاءها ريح عاصف فاقتلعت جذورها فأصبحت لا ترى إلاّ هشيما تذروه الرياح، فهل يعقل أن تكون أنت تلك الحديقة فلمّا أوشكت أن تؤتي أكلها فيك كنت كالنار التي تأتي على خيراتها.

أما كنت من قبل شيئا عدما، وأصبحت اليوم شيئا مذكورا، ثمّ تأتي وتحمل والديك إلى دار العجزة بسبب زوجتك أو أنّك تخجل منهما وقد ارتقيت في منصبك وأصبحت شخصا مهمّا في المجتمع مرموق الجانب، وهذان الوالدان يسيئان إلى مكانتك ومنصبك؟ سحقا لكم، إنّ العقوق سرطان خبيث قد عشّش في نفوسكم فهلاّ استحييْتم من أنفسكم ومن الله العليّ القدير!، والقصص مما يمرّ علينا في الدّار كثير.

وممّا وقفت عليه من قصص هؤلاء الآباء المساكين أنّ أحدهم جاء به ابنه إلى هنا وقد ضاق به ذرعا وهو مريض بمرض الكلى، فلمّا سألت ابنه عن ذلك قال:" يا أخي لي مشاغل كثيرة، وهو لا بدّ له كل أسبوع أن يذهب إلى مصلحة تصفية الكلى بالمستشفى، أنا مشغول، أنا مشغول، سبحان الله وهل يعقل يا دكتور أن أطوف به كلّ حين المستشفيات؟ "

تعجّبت من حديثه وقلت له:" ولو كنتَ أنت المريض أو ابنك أو زوجتك فماذا تفعل؟، فهذا قدر الله فيه بالمرض، وهو أبوك فإذا لم تقم على شؤونه أنت فمن له غيرك؟ "، وكنت أحدّثه بهذا الحديث ظنّا منّي بأنّه سيرعوي وطمعا في إشفاقه على والده المسكين، ولكنّه قال في قمّة التّأفّف:" ولمن أقيمت هذه الدّيار إذن؟، دعوه عندكم وسأزوره من حين لآخر إذا لم أكن مشغولا... "، قلت في نفسي بتعجّب واستغراب:" إذا لم تكن مشغولا يا هذا...؟!!!، سبحان الله، وهل تتكبّر على أبيك وتشغلك عنه الدّنيا؟، ما بال هؤلاء القوم يزهدون في الجنة، ويوقدون النيران في قبورهم، ذلك هو الخسران المبين! "، وقد تحدّث بذلك الحديث الجارح الذي يقطر بالسّمّ على مسمع ومرأى من أبيه.

نظرت إلى الوالد المغبون فوجدته متأثرا مطأطئ الرأس، فإذا به المسكين يذرف الدموع بحرقة وينتحب، وقد شحب لون وجهه، وحرّك رأسه يومئ لي بأن أدعه ينصرف فلا فائدة من الحديث معه، فلمّا هزّ هذا الموقف كياني وتأثرت به، بكيت لِما رأيت من صنيع هذا الإبن المحزن المخزي، وما كان من ذلك الولد إلاّ أن ودّع والده ووضع في يده مبلغا من المال ثمّ انصرف في غمرة من القسوة والوقاحة والصّدود، فرمى الوالد ذلك المال من يده وهو يتمتم، فقلت ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم:" إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق ".

خفت على ذلك الولد من أن يكيل له عدل الله تعالى في الوالدين بمكيال السوء، فأوصيته بولده خيرا وقلت له:" هذا ابنك وفلذة كبدك، لقد حرمه الله تعالى من نعمة الوالدين وأنت حيّ، وأوصد في وجهه بابا من أبواب الجنّة ومفتاحها بيديك، فإن كان كذلك فلا توصد في وجهه بابا من أبواب الخير وهو الدعاء، فادع الله العليّ له لعلّه يهديه، وقد يعود يوما ما نادما فيستدرك ما جنته يداه ".

وكان ذلك الأب المسكين من نفسي بمكان لمّا وقف هذا الموقف مع ولده، ولم يعده منذ ذلك اليوم الذي أوصله فيه إلى دار المسنّين، حتّى كان في آخر أيّامه وقد أنهكه المرض فأسرّ لي حديثا قال فيه:" إنّ ابني هذا الذي أوصلني إلى هنا ورماني، لا يعلم أنني تبرّعت له يوم أن كان مريضا بكليتي، ممّا تسبّب لي في عجز كلويّ ألزمني إجراء تصفية الدم كل أسبوع مرة في المستشفى "، ثم توفّي رحمة الله عليه بعدها بأيام، فانظر كيف يفدي الوالدان أبناءهم بعيونهم وأحشائهم، وبالغالي الذي لا يقدّر بثمن، ويضنّ الأبناء على آبائهم بالكلمة الطيبة!.

وقفت أمام ذلك الكلام مندهشا، متعجّبا، محتارا، وقد تحجّر الريق في حنجرتي، وعجز اللسان عن الكلام في أي شيء بعد أن أسرّ لي هذا الوالد المسكين بذلك الحديث الذي سمعته منه، ووددْت أن لو لم يحدّثني به، وذلك السّرّ الذي باح لي به أتذكّره كلما رأيت غرفته التي كان يقيم فيها، ويذهب عنّي النوم كلما وضعت رأسي لأنام، فرحمه الله تعالى في علّيّين، وأحسن عاقبة هذا الإبن المسكين.

# -٣٢-

بعد أن أتمّ ذلك الطبيب النفساني حديثه، وكان حديثا شيقا ذا شجون، لما ألمّ به من التجارب في التعامل مع هؤلاء المقيمين معه في دار المسنّين، دعا لنا بخالي (منصور).

فلمّا رآني ابتسم وظنّ أنّني جئت لزيارته كعادتي، وأمّا عندما رأى أبي تعجّب وارتمى في حضنه لأنّه عرفه، ولو أنّ للزّمان دوره في تغيير الملامح وتقاسيم الوجه وشيب الشعر، وقد أحرق النّحيب والبكاء صدره، وكان كذلك في زفراته وحسراته وكأنّما تلك الزفرات والحسرات تترجم شيئا دفينا في صدره، ألا وهو هذا الحنين الملتهب في فؤاده تجاه من يشمّ فيه رائحة أهله، وشوقه لأخته (زينب) التي كانت تحبّه كثيرا وفارقت الحياة وهي جريحة الفؤاد، قريحة الأكباد بسبب أخيها (منصور)، وكذلك ما جنته يداه بسبب التفريط في والده وما آل إليه في آخر أيام حياته، وما آل إليه هو بعد أن أدار له الزمان دهره في زوجته وأولاده، وكذلك مآله في آخر أيام حياته إلى دور العجزة والمسنين، وقد كال له العدل الإلهي بمكيالين أحلاهما مرّ، أحدهما في تشتّت شمله، والآخر في ذهابه إلى نفس المكان الذي قضى فيه والده، وكما تدين تدان.

ثمّ نظر إليّ ولم يعلم بأنّني ابن هذا الرجل الذي يدعى (عليا) وابن أخته (زينب)، فلمّا علم بذلك من أبي ازداد بكاؤه ونحيبه، كما فعلت أنا، ثمّ أخذت بيده، وجلسنا برهة من الزمن، نتقاسم حلو الذكريات ومرّها، ونتجاذب ما أقبر الزمان من الأحداث في جوف لحْدِ النسيان، ووعدنا بالزيارة وقتما سمحت الفرصة.

# -٣٣-

مرّت الأيام بطيئة تتعثر، والنفوس كسيرة تتحسّر، والقلوب حزينة تتكسّر، حتى مضى على فراق الأم الغالية نصف عام، ولكن الأفئدة ما زالت تحنّ إلى الذكرى الجميلة، والعيون تذرف العبرات بصبر حزنا على فراق الأم العزيزة، وليس للمحزون من الصبر بُدّ، ولا للنفوس المجروحة من طبيب على القضا إلا الرضا.

وخاب مسعى العائلة في إقناع الوالد بالزواج، فلم يكن من مخرج بعد ذلك إلا أن يتزوّج (مالك)، وقد تحدث وأخته وأبوه عن موضوع الزواج وأقنعوه بذلك فاقتنع وقبل، وذلك لحاجته الملحة إلى الزوجة وقد كبرت سنه، لِما لوجود المرأة في حياة الرجل من مكانة، فهي - إن صلحت - الزوجة والأخت والناصحة والقائمة على شؤون البيت والولد، والمعينة على نوائب الدهر، وهي الملاذ الذي يلوذ إليه إن عصفت عواصف الأيام واشتدت رياح الهموم في خريف الحياة وفي الأيام العجاف، وهي السكن الروحي والعاطفي والنفسي.

ثم إن عائلته إلى المرأة في البيت لفي مسيس الحاجة لما تضطلع به من المسؤوليات والمهام من طهي للطعام وتنظيف للبيت وغسل للثياب، وتربية للأولاد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهي المعينة على هموم الدنيا، وهي السكن الروحي والوجداني والنفسي، فهي دواء الروح والجسم معا.

إجتمع (مالك) وأبوه و(ميمونة)، وأخذوا يتحدثون عن موضوع الزواج، وقد أوكل إليهم مهمة البحث عن الزوجة، ثم يستشيروه حين ذلك بعد أن يراها ويسأل عنها، ليجمعوا في الأخير على من تصلح له ولعائلته.

(ميمونة):" هل لك أن تدلنا على فتاة تراها مناسبة لك؟"

(مالك) يحمرّ ويتلعثم في الكلام ويندى جبينه من شدة حيائه، ثم يقول:" لقد قلت لك يا أختاه بأن الأمر موكل إليكم، فمن رضيتم بها لي زوجة فذلك، ولست أبحث عن فرط مال أو جمال، أو عن عاملة تكسب المال، فليس لي حاجة في ذلك كله، إنما هي فضول إلى أفول، إنما أريد أن أحظى بذات الدين والخلق، فذلك رأسمالي، فإنها أجدر أن تعرف حقوقي، وأحرى أن تضطلع بمسؤولياتها تجاهي وتجاه عائلتي وبيتي، ثم ابحثوا عمّن ترضى بحالتي مع قلة ذات يدي وتواضع مسكني، فإن اجتمع في إحداهن مما ذكرت من الشروط قبلت".

(ميمونة):" أسرفت في الطلب يا أخي، وإني أخشى أن يكون ما تصبو إليه بعيد المنال، صعب الحصول، فإن بنات اليوم قد خوت قلوبهن من الحياء والحشمة، وفرّطن في حجاباتهن فعمّ السفور والتبرج، ولهثن وراء كل تافه ووضيع من الأمور، وساءت أخلاقهن إلا مَن رحم الله تعالى، ولكن سيكون خيرا إن شاء الله"، ثم ما لبثت أن أطرقت ببصرها إلى الأرض وهمّت بالتفكير وقد اعتلت وجهها ابتسامة.

ولم تكن أفكارها حوّمت إلا في سماء قد حوّمت فيها أفكار (مالك)، فقد وقع إعجابها على أخت صديقه (ياسين) حينما زارتهم وأهلها في مرض أمها رحمها الله تعالى، حيث حلّت من قلبها بمكان، كما قد حلّت من قلب أخيها محل الإعجاب، إذ رأى من حيائها وحشمتها وحجابها وصَمْتها ما جعله يتمناها له زوجة، ولكنه لم يكن يجرؤ على البوح بذلك لحيائه، وترك الأمر للقدر ينفذ ما قضاه الله تعالى، ولأخته من ترضى له بها زوجة.

# - ٣٤-

وأخيرا سأدخل إلى القفص الذهبي، أو إلى جنّة الزواج الفيحاء، ليت شعري لقد ضاعت الأسماء في هذا الزمان واختلطت المفاهيم وأصبح الناس يطلقون الألقاب عبثا، فيظلمون معاني الأسماء عدْوًا بغير علم.

لقد تعدّدت الأقفاص في زماننا هذا، فإنك إن سمعت أن رجلا دخل قفصا ذهبيا، فلا تتخيّل أن يكون فيه تنغيص عيش أو تنكيد حال أو رؤية قبيح أو سماع هجر من القول.

كما لا يتخيّل أن من يعيش في الجنة يرى قبيحا من المناظر أو سيئا من القول، أويلفح وجهه من الرياح سموم أو يفتك بجسمه البرد والزمهرير أو تنال من قلبه الغموم والهموم.

يزعمون أنهم سيدخلون إلى القفص الذهبي وعبثا ما زعموا، ويحلمون أنهم سيعيشون في هذه الجنّة الغناء وليتهم ما حلموا، يتنعّمون فيها ويسرحون ويمرحون، ويا ليت ذلك القفص كان قفصا بل إنه لسجن، ويا ليته كان ذهبيا بل إنه لَمِن حديد، وما ذلك إلاّ ما جنته أيديهم عليهم، و"على نفسها جنت براقش ".

أيها الأزواج...

إخترتم الجمال على الدِّين فأرداكم، وفضّلتم المال على الصلاح فأفقركم، وبنيتم حياتكم الزوجية على المصالح الدنيوية فخسرتم، ويا ليتكم أدركتم الحكمة في اختيار ذات الدين تربت أيديكم.

لو كنت واحدا من لصوص الشرف لأصبحت اليوم غارما، ولأثقلتني ديون الذين سرقت عفتهن أو ضحكت عليهن وعلى شرفهن وعائلاتهن، ولكنني أحمد الله تعالى أن وفقني وهداني وعافاني من الوقوع في مغبة الفاحشة، فإنها فاقة ومذلة وخسران وعلة، وهي عقا ب وعذاب ومهانة في الآخرة، وما ذلك من حيل يدي، إنما ذلك توفيقه عز وجل، ولقد قال الشاعر:

عفّـوا تعـفّ نسـاؤكـم في المحـرم وتجنّبــوا ما لا يليـــق بمسلـم

إن الـزنـا ديـن فإن أقـرضتـه كان الوفــاء من أهــل بيتـك فاعلـم

يا هـاتكـا حـرم الرجـال وقاطعـا سبـل المودة عشت غير مكرّم

لـو كنـت حـرًّا مـن سلالـة مـاجـد ما كنـت هتّاكـا لحرمـة مسلـم

مـن يـَزْن يـُزْن ولـو بجـدار بيتـه إن كنـت يا هـذا لبيبـا فـافهـــم

يا لصوص الشرف رفقا بالقوارير...

لقد دنّستم الأعراض، وفتكت بجسومكم الأمراض، وأبَدْتم الحياء، وأشعتم الفحشاء، وقتلتم الفضيلة وأحييتم الرذيلة، وكانت تجارتكم في سوق الفجور أن اقترضتم من الغافلات عفتهن واستغللتم سذاجتهن وضعفهن فسرقتم منهن شرفهن واستحللتم بإذن الشيطان فروجهن، وخنتم الأمانة، أمانة الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام فعصيتموهما، وأمانة المجتمع فأشعتم الفحشاء فيه واختلطت الأنساب وجاء من فعلكم الشنيع أولاد لا أنساب لهم ولا آباء، وخنتم أمانة والديكم وقد كانوا يؤملون فيكم الصلاح والعفة والدين وإدا بكم تهدمون ولا تبنون، وأمانة الذين استوليتم على أعراضهم من الأسر فما ذنبهم؟؟؟

يا لصوص الشرف رفقا بالمجتمع، إنما الرذيلة " فيروس " فتاك، إذا سرى في جسد المجتمع عرّضه للهلاك والفناء، " وما انتشرت الفاحشة في قوم قطّ إلاّ ابتلاهم الله بالأمراض التي لم تكن في أسلافهم "...

يا لصوص الشرف رفقا بأنفسكم، فهل شهوة لحظة ونزوة عابرة تجعلكم مجرمين في حق الدين والناس والمجتمع وأنفسكم؟؟؟

ألا إنّكم لمجرمون حين ضيعتم هذه الأمانة...

ألا إن الأمانة عرضت على السّمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملتها، فكيف تضيعها حين كلفت بحملها؟

أما آن للنفوس أن ترعوي وقد بانت في الآفاق مغبّة تجارة الفسق وسوء الأخلاق، ألا فاتقوا الله يا رعاكم الله.

# -٣٥-

وكان موعد الرؤية الشرعية، فهاتفت (ياسين) لنرى ما رأي العائلة في المصاهرة وطلب يد ابنتهم للزواج.

(مالك):" السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، كيف حالك يا أخي (ياسين)، أظنها مفاجأة؟ "

(ياسين):" وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته، نعم يا أخي حقا إنها لمفاجأة، كيف أحوالك وأحوال والدك و(أحمد)، هل أنتم بخير؟ "

(مالك):" الحمد لله على كل حال، فحالنا كحال ذلك الذي يخرج من الحرب وقد أرهقته تكاليفها، فبعد وفاة الوالدة - رحمها الله تعالى - تغيرت أحوالنا النفسية والبيتية والمعيشية رأسا على عقب ".

(ياسين):" كان الله في عونكم يا أخي، ولكن كيف هي أحوالكم مع شؤون البيت من التنظيف والغسل وطهي الطعام، أظنكم تجدون المشقة في ذلك؟ "

(مالك):" بالتأكيد يا أخي، فالمرأة لا مناص من وجودها بالبيت، فإن ذهبت زالت روح البيت، وهل للجسد بلا روح من حياة، بل إنه الموت حتما "

(ياسين):" ولكن كيف تديرون أموركم؟! "

(مالك):" أنت تعلم أن أختي تسكن بالقرب من بيتنا، فهي تتردّد صباحا ومساء على البيت لتقوم بالأشغال، ولكن ذلك يشق عليها كثيرا، خاصة وأن لديها عائلة تقوم عليها، وزوجا وأولادا صغارا، فقد أجهدت نفسها المسكينة ولكن لا حيلة "

(ياسين):" ولكن هناك سبيل للخروج من هذه المشكلة يا أخي، تزوّج يا (مالك)، فأنت في سن الزواج، ولا حل إلا أن تتزوج، خاصة وقد علمتُ بأن أباك رفض ذلك "

(مالك):" والله في الحقيقة يا أخي، منذ زمن وأنا متخوّف من الإقبال على هذا الموضوع، لأنني لا أجد المال الكافي وأنت ترى ما آل إليه موضوع الزواج من إسراف ومغالاة في المهور، ومن التباهي في اقتناء جهاز العروس وما تبعه من شراء للحلي، والأمرّ من ذلك كله هو غياب ذات الدين والخلق، ممّا تسبّب في كثرة نشوز الزوجات وكثرة الخلافات وسوء العشرة الزوجية وكثرة الطلاق ".

ياسين:" إنّ الإنسان له منظاران ينظر بهما إلى الأمور، منظار سلبي والآخر إيجابي، حيث أنّه إذا أقبل على أمر مصيري كالزواج مثلا فإنه يُسقِط ما يراه في المجتمع ممّا ذكرته على العلاقات الزوجية مطلقا ودون تقييد وهو مخطئ في ذلك، فعلى الإنسان أن يستخير الله تعالى، ويتخيّر من العائلات ذات الدّين ليظفر بذات الدين ".

صمت (مالك) قليلا ثمّ قال:" لعلّني إن طلبت منك شيئا، فهل تردّني يا (ياسين)؟ "

فقال له:" والله لن أردّك إن كنت أقدر على خدمتك، وهل نسيت ما كان بيننا من الودّ والأخوّة؟!"

فقال له (مالك):" أريد أن أتقدّم لخطبة أختك، وأن أحظى بشرف مصاهرتكم، فهل تأذن لي في ذلك يا أخي "

فردّ عليه (ياسين):" بكلّ فرح وسرور يا أخي، ووالله لو لم تسبقني إلى ذلك الطلب، لطلبت منك ذلك بنفسي، فلي الشرف أن أضع عزيزة عليّ كأختي بين أيدي من يحفظها في دينها، وعرضها، ويكون لها نعم الزوج ونعم الأخ ونعم الوالد، إنه ليحصل لي شرف ذلك يا أخي (مالك) ".

# -٣٦-

بعد ذلك بشهر خطبت تلك الفتاة إلى أهلها وقد أحسنوا عوني أحسن الله عونهم، وسهّل الله لي ما شاء سبحانه وتعالى أن يسهّل سواء في المهر أو في وليمة العرس، وتزوّجنا بعد ذلك، ورزقني الله تعالى عملا في أحد الإدارات، وأنا اليوم أحمد الله تعالى أن تفضّل عليّ بكلّ ذلك، ورزقني فوق هذا وذاك -أحمده عز وجلّ وأثني عليه وهو أهل لذلك- ابنة تبلغ من العمر اليوم قرابة السبعة شهور سمّيتها (إخلاص).

بحلول فجر هذا اليوم حال الحول على عقد القران بك أنت يا زوجتي، حولٌ حلت حول أيامه الأفراح فحوّلته ربيعا في ربيع العمر بعد أن كان خريفا تساقطت أوراقه مما يلاقي من عضات أنياب الحوادث وعواصف الأيام.

في مثل هذا اليوم من العام الماضي غرّد البلبل الشادي في غصني الميّاس، ولاح لي من الآمال نور بعد ظلمة غربة وإياس، فكان لي حبّه كالنبراس، أوقد لي فيه مشاعر الحب والإحساس.

وفي هذا العام أورق لي عود فتزيّنت حياتي بالورود، وأزهرت أوراقه إيذانا بميلاد الخلف الموعود، وإني لارتقاب فجر ذلك البرعم لَفِي حرقة وسهود.

اليوم زال الغيم وبان النّجم وضّاحا، يزهو في ليل أطلّ البدر فيه ممراحا، ويحلو فيه الأنس الجميل ويزهو الحبّ فوّاحا، وأصبح ليل الحزن في حياتي اليوم صباحا.

اليوم زال الحزن عن قلبي وقال للغمّ وداعا، وحلّ الفرح بروحي وجاءني الهناء تِباعا، وأنشد الأمل والخير وأطرب الدنيا سماعا.

اليوم وغدا سأضرب للسعود وعودا، ونسج قلبي بقلب الزوجة عهودا، وملأ الروح والنفس خلقا وفرحا وجودا.

اليوم وغدا ستفوح حياتي بالعطور... والآمال... والنور.

فاسعد يا أيها الأمين فإنّما يومك وغدك ببهجة القلب جنّة وسعادة وسرور.

۩۩۩ ۩۩۩ ۩۩۩ ۩۩۩ ۩۩۩ ۩ ۩۩۩ ۩۩۩ ۩۩۩ ۩۩۩ ۩۩۩

انتهت رواية " عـــروس النــور " بحمد الله وعونه عز وجلّ.

الفهرس

[-١- 4](#_Toc467705373)

[ما أعظم الأم... ! 7](#_Toc467705374)

[-٣- 8](#_Toc467705375)

[-٤- 14](#_Toc467705376)

[-٥- 21](#_Toc467705377)

[-٦- 25](#_Toc467705378)

[-٧- 29](#_Toc467705379)

[-٨- 34](#_Toc467705380)

[-٩- 37](#_Toc467705381)

[-١٠- 38](#_Toc467705382)

[- ١١- 41](#_Toc467705383)

[-١٢- 43](#_Toc467705384)

[-١٣- 45](#_Toc467705385)

[-١٤- 50](#_Toc467705386)

[- ١٥- 52](#_Toc467705387)

[- ١٦- 54](#_Toc467705388)

[-١٧- 56](#_Toc467705389)

[-١٨- 57](#_Toc467705390)

[-١٩- 58](#_Toc467705391)

[-٢٠- 59](#_Toc467705392)

[-٢١- 60](#_Toc467705393)

[-٢٢- 65](#_Toc467705394)

[-٢٣- 66](#_Toc467705395)

[-٢٤- 68](#_Toc467705396)

[-٢٥- 70](#_Toc467705397)

[-٢٦- 74](#_Toc467705398)

[-٢٧- 76](#_Toc467705399)

[-٢٨- 81](#_Toc467705400)

[-٢٩- 83](#_Toc467705401)

[-٣٠- 85](#_Toc467705402)

[- ٣١- 88](#_Toc467705403)

[-٣٢- 91](#_Toc467705404)

[-٣٣- 92](#_Toc467705405)

[- ٣٤- 94](#_Toc467705406)

[-٣٥- 96](#_Toc467705407)

[-٣٦- 98](#_Toc467705408)